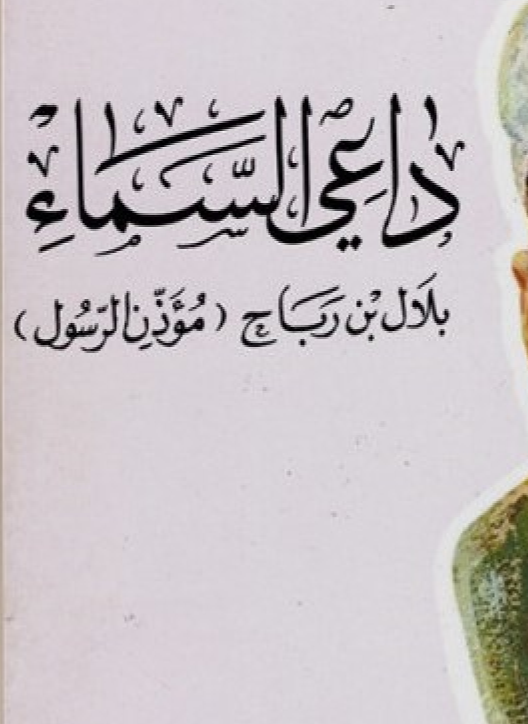
عباس محمود العقاد

داعي السماء

بلال بن رباح (مؤذن الرسول)



منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

عباس محمود العقاد



بلال بن رباح «مؤذن الرسول»

الطبعة الثانية

كتب للمؤلف

صدرت عن دار الكتاب العربي

- ابن الرومي : حياته من شعره
- مطالعات في الكتب والحياة
- مراجعات في الآداب والفنون
- يسألونك
- الفصول
- رجعة أبي العلاء
- ساعات بين الكتب
- بين الكتب والناس
- الشيوعية والانسانية
- داعي السماء ، بلال بن رباح
- ابراهيم ابو الأنبياء
- عبقرية الإمام علي

- عبقرية عمر
- عبقرية الصديق
- عبقرية خالد
- عبقرية محمد
- عبقرية المسيح
- عمرو بن العاص
- الفلسفة القرآنية
- الحسين ابو الشهداء
- الاسلام في القرن العشرين
- التفكير فريضة اسلامية
- عثمان ذو النورين
- مطلع النور
- المرأة في القرآن
- الانسان في القرآن
- حقائق الاسلام وأباطيل خصومه
- ما يقال عن الاسلام
- فاطمة الزهراء والفاطميون
- معاوية بن أبي سفيان في الميزان
- أبو نواس الحسن بن هانيء
- جحا الضاحك المضحك
- حياة قلم

فهرست

كلمة تصدير

« بين الحربين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها، وعملت
« فيها السياسة غاية عملها وأقحمها الدعاة في مباحث العلم والتاريخ في غير
« موضعها .

« وقد كانت للإسلام كلمة في انصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة
« الحضارة العصرية والعلم الحديث ، وكان في صحابة النبي عليه السلام رجل
« أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول ، فكان أثيراً عنده وعند الخلفاء وجلة
« الصحابة والتابعين .

« فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع في سلسلة العبقريات
« والسير الإسلامية في موقعها وتصادف موعدها من الزمن في أعقاب الحرب
« العالمية القائمة .

« ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء » .

عباس محمود العقاد

كلمة الناشر

لا شك في أن الاستاذ العقاد ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ من الرعيل الأول الذي خدم الفكر الإسلامي بمؤلفاته . تلك المولفات التي أدار موضوعاتها بقلمه الجبار عن حقائق الدين الحنيف وأدحض بحججه الدامغة التي تضمنتها تلك المؤلفات أباطيل خصوم ذلك الدين ، وعن طريقها أخرس المنكرين والملحدين على حد سواء .

ولا يستطيع المسلم في القرن العشرين بحال من الأحوال أن يستعرض الكتب الاسلامية التي تمتلىء بها واجهات المكتبات ودور النشر ، دون أن يطيل الوقوف أمام تلك التراجم التي دبجها يراع العقاد عن عظماء الإسلام ورجالاته البارزين الذين كان لهم ـ بدون شك ـ دور فعال في انتشار الدعوة المحمدية في الجزيرة العربية وخارجها . ونعني بها العبقريات الاسلامية .. تلك العبقريات التي ناقش العقاد، بمنطقه المفحم، في صفحاتها الأولى الدعوة

المادية التي تقوم على أن الأبطال صنائع المجتمع وليسوا بـاصحاب الفضل عليه ، وأن تعظيم الابطال الغابرين يصرف النـــاس عن عيوب النظم الاجتماعية التي انشأت أولئك الابطال فخدموها قاصدين مدّبرين أو على غير قصد منهم وتدبير .

وقد لمس العقاد بفكره الثاقب نوايا أصحاب تلك المبادىء الهدامة ، تلك النوايا الخبيثة التي تهدف الى الغض من العظماء لا سيما عظماء الدولة الاسلامية على وجه الخصوص .

ويرى العقاد أن الانسانية لا تعرف حقاً من الحقوق إن لم تعرف حق عظمائها ، وان الانسانية كلها ليست بشيء ان كانت العظمة الانسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء .

وللعقاد في تجلية أعلام الإسلام البارزين في الدولة الاسلامية منهجـه الخاص الذي لا يشاركه فيه احد حتى يومنا هـــذا ، فهو ليس من الذين يعنون بسرد الحوادث أو استقصاء البيان عن فترة من السنين، وانما يعنيه من الحادثة التي يعرض لها أو الفترة التي يستنبيها أنها وسيلة الى مقصد واحـد : هو التعريف بالنفس الانسانية في حالة من احوال العظمـــة والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والأريحية . فإن جاوز هذه الغاية الى غيرها ، فإنما يجاوزها لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الانساني ، وتخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال .

ونحن نرى العقاد في أحد تلك المؤلفات عن عظماء الاسلام وعباقرته - كما لقبهم في تلك المؤلفات القيمة - يسأل نفسه هذا السوال :

- هل تستحق الحياة ان نحياها ؟

فيجيب نفسه ويجيب قراءه قائلاً : « إن كانت حياة الانسان أهلا للثقة بها والايمان بقدرها فالجواب نعم ، وان لم تكن كذلك فلا جواب للسوال غير اليأس والضياع والانحلال .

ونراه في موضع آخر من تلك المؤلفات القيمة ينحي على أعـــداء النوع الانساني من دعاة المذاهب الهدامة الذين ليس لهم هدف في الحيـاة سوى الحرص على تصغير كل عظيم فيه ، وتلويث كل صفحة تقيـــة من تلك الصفحات الخالدة . وهم في سبيـــل الوصول الى مراميهم الخبيثة يعكفون على محاولة هدم كل ما بناه الانسان في تاريخه الطويل من قيم الاخلاق وعقائد الخير والفلاح .

وهولاء المنكرون في عملهم هذا لا يفعلون إلا ما يفعله العدو المغير على الأرض ، يتعقب شعبهـــا فلا يســره شيء كان يرجـــع إلى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب ، وذم الحميد منه وتسجيل الذميـم المعيب .

ويبلغ المسخ بهؤلاء المساكين « عباد المعِـــدات » أنهم يخلصون في بغضائهم اخلاص الجنسين المتعاديين بالطبيعة ، فلا يقنعون بما يجدونه من

العيوب والأدناس ، بل يتجسسون عليها ويلحون في تأويلها . ولايطيب لهم شيء كما يطيب لهم ان يبطلوا الثناء على بطولة البطل وتفدية الشهيد وإيثار الكريم، فيردوه الى الزراية، وتعطيل الامور بأسوأ العلل، وتفسيرها بأقبح البواعث والاغراض . ومثل هذه اللجاجة في تلطيخ تراث الانسانيّة كله بالأوزار والأدناس يعرف العقاد جيداً انها لا تصدر إلا من طبع سقيم وخليقة عوجاء، لأن اصحابها والمروجون لها إنما يرجع دافعها في نفوسهم العوجاء الى مسخ في الكيان يُسلك المبتلى به في مسالك العدو المبين لنوع الانسان .

لذلك كله ترك العقاد تلك الدراسات عن عظماء الاسلام كزاد للمكتبة الاسلامية لا ينفد ، وكمعين لا ينضب ، وحسبنا ما كتبه عن الرسول عليه السلام وعن صحابته العظماء .. عمر ـ الصديق ـ خالد ـ الحسين ابو الشهداء ـ الامام علي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء وغيرهم الكثير .

والعقاد يعلم ان سخط الساخطين وغيظ المحنقين على ما يكتب من مؤلفات عن عظماء الاسلام ما كان يزيده إلا اضافة بحث وكتابة سفر يقف بجوار إخوة له سبقوه إلى عالم القراء .

ولم يفت العقاد، المؤرخ الإسلامي والمفكر العربي العملاق، ان يسطر ببراعته ويرسم بريشته الخلاقة صورة لذلك الانسان الكريم الذي كان من أول الذين تشرفت أفواههم باسم الله ، ونعني به بلال بن رباح أو داعي

السماء . ذلك العبد الحبشي الذي لاقى من صنوف العـذاب ما لاقى ، فلم تلن قناته ولم يرجع عن اتباع دعوة الحق التي نادى بها محمد عليه الصلاة والسلام .

داعي السماء أو موذن الرسول .. أحد الذين آمنوا بدعوة الإسلام وهي محاطة بأشد الاخطار المحدقة بها في البداية وظل على إيمانه بهـا وتحديه للفكرة من سادات قريش حتى لاقى ربه راضياً مرضياً .

وهو أول مسلم صعد الى المئذنة ليعلن على المـلأ : « الله اكبر . الله أكبر . أشهد ألا إله إلا الله ، واشهد ان محمداً رسول الله . حي على الصلاة . حي على الفلاح » .

ومنذ ذلك اليوم ادركت قريش بان دعوتهم خاسرة لا محـالة ، وان دعوة محمد منتصرة بتأييد الله ، فأوجسوا خيفة ، وأنزلت تلك الكلمات الظاهرة بقلوب ساداتهم الرعب . فذهب البعض منهم الى حيث الرسول عليه السلام ليعلنوا انضمامهم إليه وتخليهم عن عقيـدة الأجداد ، تلك العقيدة التي جعلتهم يسجدون للاصنـام التي لا تملك من دون الله حولاً ولا قوة، فترة من الزمن.

وقد استطاع العقاد كعادته ان يصحب بلالاً في كتابه هذا منذ نشأته حتى وفاته ، ولم يفته ان يناقش في الصفحات الأولى من هذا السفر القيم فكرة العنصرية التي تشغل بـال المفكرين في القرن العشرين ، وكيف

ان الاسلام لم يفرق بين عبد وحر ، وأنه حينما يقول للناس « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » يعني ما يقول وان الرسول الكريم حينما يقول للناس « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » يعني ما ينادي به ايضاً ـ كيف لا وهو الرسول الأمين الذي لا ينطق عن الهوى !

لقد استطاع العقاد ان يرسم بريشته الحية صورة لبلال بن رباح نابضة بالحياة، مشرقة وضاحة ، في جبين العقيدة الاسلامية .

إن السِيَر إن وجبت كتابتها فاوجب ما يوجبها أن تكشف للقراء جانب الخير في أغوار النفس الانسانية ، فهي ليست قصيدة مديح كما يقال، بل هي تحية صادقة تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور . وهذا ما رمى اليه العقاد عملاق السير وأستاذ الاساتذة في هذا الفن في الأدب العربي المعاصر في كل ما كتب في هذا المجال . فله الى جانب سيرة « بلال داعي السماء » سير أخرى عرضَ فيها المنهج وسلك خلال صفحاتها نفس السلوك الذي يسعى اليه كلما تناول سيرة من السير رآها جديرة بالتعظيم والتوقير، وحسبنا سيرته عن ابن الرومي ، وعن المهاتما غاندي ، وعن محمد عبده المصلح المعلم ، وعن غيرهم الكثير .

ودار الكتاب العربي يسعدها ـ جرياً على العهد الذي اخذته على نفسها، وهو إحياء هذا التراث العقادي الإسلامي ، تقدم لقرائها في العالم الإسلامي كتاب العقاد عن بلال ،داعي السماء، ومؤذن الرسول عليه السلام .

ضارعين إلى الله العلي القدير أن يتقبل منا هذا العمـــل في خدمـــة الفكر والثقافة ويبارك لنا فيه ، وأن يمن علينا بالتوفيق والسداد ، كما يمدنا بعزم وقوة لمواصلة السير في هذا السبيل وتحقيق المنهج الذي رسمناه لدارنا في نشر الأصول العربية والاسلامية ، والمساهمة في إحيـاء تراث الاسلام علمياً كان أو ثقافياً . والله ولي التوفيق .

الناشر

مَسْألة العُنصُر



مسالة العنصر ـ أو الجنس ـ مسالة اجتماعية كثيرة الورود على ألسنة المعاصرين وأقلامهم ،ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم إلى أصل سامي يرّجحون أنه هو اللغة العربية ، ويعتقدون أنها ماخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رؤوس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله في بداية أمره ،ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره. فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها الى الواشجة الأولى التي نشأت في مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة الهمجية ، ثم كانت سبباً الى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصداق ذلك القرآن الكريم حيث جاء من سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

شعوباً وقبائل لتعارفوا ... » .

فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التي تعلّمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائناً ما كان معدنه ومدار الفخر فيه . فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازه على غيره ، ويزيده إمعاناً في عادة التفاخر والمباهاة أن تتاح له فرصة الغلبة والاستعلاء فترة من الزمن . فإن كانت الغلبة قائمة حاضرة فهي آية الفخر وحجة المباهاة ، وان كانت غابرة دائرة فهي عنده علامة على عراقة أصله وحداثة غيره ، وانه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة وان خدمته الحظوظ والمصادفات في حاضر أمره .

فلم تُعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنشأتها وبيئتها وبلادها ، والذي قال :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة وأهلي وان ضنّوا عليّ كرام

قد جمع هذه الحقيقة من جميع وجوهها وهو يدري أو لا يـــدري . فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ولا أن يكون الآلُ أكرم الناس ليفخر بهم الرجل الذي ينتمي إليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم. فإنه ليعظّمهم ويبجّلهم فراراً من المهانة التي تصيبه إذا تقاصروا عن شأو العناصر الأخرى في التعظيم والتبجيل ... فهو فاخر بهم ان عظمـــوا مساهمة منه في فخارهم، وفاخر بهم إن هانوا دفعاً للهوان عنه إذا اعترف بهوانهم ، ولا حساب للبحث أو للرأي في الحالتين إلا بعد حساب العاطفة والشعور .

كان المصري القديم يؤمن بأنه هو الانسان الكامل ثم تتلاحق الشعوب بعده إلى ان يأتي أبناء اليونان في المرتبة السادسة .

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الانسان المهذب ومن عداه برابرة لا يدركون مكانه من الفهم والحضارة .

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الانسان المبين الكريم ومن عداه « أعاجم » لا يفقهون ما يقال ولا يدينون بدين المروءة والأحساب .

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين ، بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين تنظر الى نظائرها وان تلاقت جميعاً في أصل قريب من الأحساب والأنساب .

وبقيت هذه الشنشنة بين أمم الحضارة في العصر الحديث فاعتزّ بها

الأوربيون على أبناء القارات الأخرى، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جاره بالعادات والأخلاق والمآثر وإن تقاربوا في السلالة واللغة والعقيدة . فليس أشد تفاخراً بين الأوربيين من الطليان والأسبان والفرنسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية وبعقيدتهم إلى المسيحية الرومانية وبعناصرهم الى مزيج متقارب من السلالات ، ولكنهم تعلموا - بوحي المصلحة المتفقة - أن يجمعوا فخرهم كله الى فخر واحد يتقارب فيه الأوربيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء الى القارة المجتباة بين القارات ، وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشّر بها الأوربيون من عداهم من الشعوب الانسانية ، وسموا تلك الرسالة « عبء الرجل الأبيض» أو أمانة الرجل الأبيض ، أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقاء .

وصدق العالم الانجليزي الحديث جوليان هكسلي حين قال إن هؤلاء الدعاة مسبوقون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح. فقد سبقهم « أشعيا» من أنبياء اسرائيل فقال في إصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعي لي أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد . الرب من البطن دعاني . من أحشاء أمي ذكر اسمي . وجعل فمي كسيف حاد . في ظل يده خبأني وجعلني سهماً مبرياً . في كنانته أخفاني . وقال لي أنت عبدي اسرائيل الذي أتمجَّد . أما أنا فقلت عبثاً تعبت ، باطلاً وفارغاً أفنيت قدرتي . لكن حقي عند الرب وعملي عند إلهي .

« والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم اليه إسرائيل ، فأتمجد في عيني الرب وإلهي يصير قوتي . فقال : قليلٌ أن تكون لي عبد الاقامة اسباط يعقوب ورد محفوظي اسرائيل . فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي الى أقصى الأرض. هكذا قال الرب فادي اسرائيل ... » .

فرسالة الرجل الأبيض التي تمخض عنها القرن التاسع عشر كله لم تذهب بأصحابها الى أبعد من هذا المدى الذي سبقهم إليه بنو اسرائيل قبل ميلاد السيد المسيح بسبعة قرون .

***

وظلت المفاخر العنصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التي لا يرجع فيها إلى قياس منطقي ولا موازنة علمية ، فكانت أشبه شيء بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وجيرانهم وبيوتهم التي يسكنونها ومدنهم التي ينشأون فيها وكل شيء يتصل بهم وتنعقد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم . وفحوى مفاخر الأجناس من هذا القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب . وليس هذا من القياس المنطقي ولا الموازنة العلمية في شيء .

ثم اتسع نطاق البحث العلمي في القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق بين الشعوب في موضوعاته الكثيرة وجعل لها عِلماً خاصاً أو باباً خاصاً

من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية .

وانتهى به البحث إلى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من الأجناس التي ينتمي اليها شعوب البشر كافة ، وهي الجنس القفقاسي أو الأبيض ، أو الجنس الزنجي أو الأسود ، والجنس المغولي أو الأصفر ، والجنس الأسمر أو أهل الملايا ، والجنس الأحمر أو سكان القارة الأمريكية الأصلاء .

واختصر بعضهم هذا التقسيم إلى ثلاثة أقسام فجعل الأجناس الصفراء والسمراء والحمراء فروعاً من أصل واحد ، وهو اختصار له سند معقول .

وقد عُني أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التي تورث وتنتقل مع الأجيال ، أي بالفروق التي يسمونها فروقاً بيولوجية دون غيرها من الفروق الاجتماعية التي تكسب بالقدوة والمحاكاة .

وتناول العالم اللغوي الألماني ماكس موللر دراسة الأجناس من الناحية التي تعنيه وهي ناحية المقابلة بين اللغات ، فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحياها من جديد بعد أن سبقه إلى استخدامها السير وليام جونس في أواخر القرن الثامن عشر ، وقرر أن لهجات اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « أريانا » وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الأجناس

البشرية، وكلا القولين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما أثبته جوليان هكسلي من كلامه عن الجنس في القارة الأوربية .

وأحس العالم الألماني الكبير أن دعوة الجنس الآري ستخرج من حيز التفكير العلمي إلى ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من الخطأ في تفسير كلامه وعاد الى التحذير من ذلك في شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أنني إذا ذكرت الآرية فلست أعني الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة ، وإنما أرمي الى قصد واحد وهو اولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية .. ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع في ذلك الخصائص التشريحية، ولا أعني أن ابناء السكنديناف ذوي العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا مقهورين ، ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذين تغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك .. وعندي ان عالم الأجناس الذي يتكلم عن العنصر الآري والدم الآري والعيون الآرية والشعر الآري إنما هو في خطيئته العلمية كاللغوي الذي يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أجرومية مستديرته على حد سواء » .

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال في مذهب النشوء تتسع وتتشعب حتى عرض لبعض الباحثين فيه ان الأجناس البشرية تنتمي إلى أصول متفرقة لا الى أصل واحد أوشجرة واحدة، وان القردة العليا هي أجناس بشرية سفلى ، وأن المغولي والقرد المعروف بالاورانج

نبتا من أصل واحد ، وان الزنجي والغوريلا والشمبانزي تنتمي إلى أصل آخر ، وكان رأس القائلين بهذا الرأي عالما ألمانياً من علماء الاجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch أستاذ هذا العلم بجامعة برسلاو الالمانية. فأعلن في اوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما له من الشواهد والملاحظات التي كشفت عنها مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الانسان.

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرهما . بل كان كذلك قرن التوسع في الاستعمار وتسخير العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية... فظهر من الكتّاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس اللون والعنصر، وقام في أوربا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الاجناس البشرية ومن يرد الفضل في كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة إلى أصل الجنس الآري المزعوم في الشمال . وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « أرثر دي جوبينو » في فرنسا وهوستون شمبرلين الانجليزي المتجرمن في المانيا ،ولم تخل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة وهي ميدان نزاع بين الاجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين المهاجرين الاوربيين الذين يمتون بالنسب الى اصول مختلفة . كالسكسون واللاتين وأمم الشمال والجنوب . فكان لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard وماديسون جرانت Madison Grant على رأس المبشرين بهذه العقيدة في الولايات المتحدة . ولم تكن كراهة الاجناس الملونة هي الباعث الوحيد في نفوس هؤلاء الى التبشير بمزايا الرجل الابيض أو مزايا الجنس الآري خاصة من

بين الشعوب البيضاء ، وانما كانت كراهتهم للحكومة الحرة ـ أوحكومة المساواة بين الطبقات ـ باعثاً آخر الى إنكار صفاء الشعوب التي سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الأري أو الجنس الشمالي المجيد ، فكانت هذه النكسة مدرجة لها الى النزول عن أوج السيادة والاذعان لشريعة المساواة .

ولا شك ان حروب نابليون بونابرت كانت لها يد قوية في تمكين هذه النزعة بين الامم الجرمانية خاصة ، لانها كانت سلاحها الذي تدرأ العار به عن فخارها القومي في مجال الصراع بينها وبين اللاتين أو بين أمم الشمال وأمم الجنوب ، وقد كان نابليون قائد فرنسا اللاتينية في صراعها مع الجرمان منحدراً من جنوب الجنوب بالقياس الى القارة الاوربية ، فكانت صيحة الفخار القومي التي تستثار بها الامم الجرمانية الى الوحدة هي تعظيم مزايا الجنس الشمالي الذي ينتمون اليه ، واتفق ذلك في عصر البحث عن الاجناس وعصر النشوء والتطور وعصر السباق الى الاستعمار وعصر الديمقراطية التي تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم ، فكانت صيحة التفوق العنصري على أشدها بين الالمان ، وكادت عقيدة الجنس الآري أن تنحصر فيهم بعد مولدها في بلاد الانجليز على لسان واحد منهم وهو العلامة ماكس موللر الذي سبقت الاشارة اليه ، ومن ثم ندرت دعوة الى التفوق العنصري لم تكن لها صلة بالثقافة الالمانية الحديثة من قريب أو بعيد .

* * *

وقد تعددت الاسباب التي ألهجت ساسة الالمـــان بعد الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ ـ ١٩١٨) بمسألة العنصر ودعوى الآرية أو الأقـــوام الشمالية وما لها من الرجحان على خلائـــق الله كافة من اوربيين وغير اوربيين ، سواء في الزمن القديم أو في الزمن الحديث .

فقد احتاج الساسة الالمان إلى محاربة المذهب الشيوعي فوضعوا بأزائه مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهي تعتصم بالخصائص القومية في وجه الدعوة الدولية التي يبثها الشيوعيون ، وفاقـاً لعقيدتهم المعروفـة ، وهي عقيدة الثورة على الاوطان والاديان .

ووافقتهم الخصائص القومية في حربهم للشيوعيين من وجه آخر غير المقابلة بين المذهبين ، وذاك هو المقابلة بين عنصر السلافيـــين وعنصر التيوتون الذي ينتمي اليه الألمان . فكانوا يقولون انهم هم حماة الحضارة الاوربية من زحوف البرابرة التي تهددها من قبل آسيا في الزمن الحديث.

واستغلوا دعوة العنصر الآري استغلالاً غير هذا وذاك في محـــاربة اليهود باسم الساميين .

واستغلوها مع هذا وذاك لاستنهاض نخوة الامم الجرمانيـــة بعد هزيمتها المنكرة في ميادين القتال ، فنفخوا في أوداجهـــا أنها أهل للظفر ـ وليست بأهل للهزيمة ـ لانها خلقت للسيادة وتنزهت في سلالتها الآرية عن شوائب الاجناس ، وأدخلوا في روعها أنها كانت وشيكة أن تظفـر

بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى .

فاصبحت دعوة العنصر هوساً جامحاً كهوس التعصب في كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآري المزعوم أنهم جعلوه فلسفة في الحكم وفلسفة في الاخلاق والفنون والآداب، فكانوا يقولون إن الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومي كما تنبت الجوارح في الاجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل في تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هتلر ينادي في كتابه « إننا معشر الآريين لا نعرف الحكومة إلا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب».. فهي شيء لا يدخل في الارادة ولا في التربية السياسية ولا في نظم التشريع والانتخاب .

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها ـ مع تلك البواعث النفسية والسياسية ـ مبلغاً لم يسبقهم اليه سابق في عالم البحث ولا في عالم الخيال . فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى تلتقي بالقردة ولا يبعد ان تناسلها ، وجعلوا انفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقي الى الذروة العليا في ذلك الترتيب ، وعادوا الى كل رجل من أصحاب القرائح الخلاقة بين عظماء الامم فالحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا الى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضاره فنسبوه الى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو مهاجرة الى

وطن من الاوطان ، فحصروا الخلق والسيادة في الآريـة المزعومة دون غيرها وجعلوا العناصر الاخرى جميعاً عالة على الآريين ينتفعون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين او كارهين .

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب إلى الغلو في إنكار خصائص الأقوام والاجناس ، وهم اذا غلوا في هـذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى الى الاقناع من شفيع العنصريين .

وإنما نعرض للبواعث التي امتزجت بالحقائق العلمية في مسالة الجنس والعنصر لأن الإلمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلميـــة من اخلاطها الغريبة ويرجـــع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول .

ومن الواجب أن نصغي أولاً إلى دواعي التشكيك في تـلك الدعوة الجازمة وهي كثيرة ، فإنها على التحقيق تدعو إلى الشك في دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التي خيل اليهم انهم يؤمنون بها ، لانهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان .

فمن دواعي الشك في العنصرية الآرية أن العنصر الآري المزعـوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثيـــة على النحو الذي تخيلوه ، وإنما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم

اليوم الى سنخ واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العنصرية إلا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم لغة واحدة على تباين المواطن والألوان .

قال العالم الانجليزي جوليان هكسلي في كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوربية ، ان دعاة العنصرية يتكلمون عن الجرمان والآريين وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحـــدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق . وإنما المقطوع به أن هناك نموذجاً بشرياً يعرف بالنموذج الشمالي موزعاً بين الأقطار الشمالية في أوربا من الجزر البريطانية الى التخوم الروسية ، وان هذا النمـــوذج وهو على أقرب ما يكون الى النقاوة والصفاء في بعض الأقاليم السكندنافية لم ينسب إليه قط فتح من فتوح الحضاره أو كشف من كشوف العلم أو أداة من أدوات الاختراع التي اشتهرت في التاريـخ ، وقد روجعت مخلفات العصر الحجري التي ترد الى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة في بريطانيا العظمى فاذا هي تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها الى شبه الجزيرة الأيبيريـــة – التي نعرفها باسم الأندلس – ثم إلى فرنسا فالجزر البريطانية . ومن المحقق أن الخطوات الأولى التي خطاها الانسان الى الحضارة حـــين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواليب قد تقدم بها في جوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمراء التي لم تنسب الى السلالة النوردية ، ومن المحقق كذلك ان مشاهير الجرمان أمثال جيتي وبتهوفن وكانت كانوا مستديري الرؤوس ربعة في القوام ، وليس نابليون ولاشكسبير ولا آينشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التي يزعمونهـــا

للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الاشقر والقوام الطويل الرشيق لا يعرفان لزعيم من زعماء الدعوة النوردية أو الآرية المزعومة. فهتلر أسمر وجورنج سمين بادن وجوبلز قصير دميم وزعماء « الجنكر » من سكان المانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافيين والتيوتون ، وهم أكبر الدعاة الى السيادة الجرمانية على الامم قاطبة .

ويتفق علماء الاجناس ووصف الانسان على توزع السلالات في العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض في عنصر أو سلالة . فالجنس الابيض في القارة الاوربية وما جاورها ينضوي إلى عنوان واحد ولكنه ينقسم الى السلالات النوردية والالبية وسلالة البحر الابيض المتوسط ، وهذه السلالة الاخيرة تنضوي إلى عنوان واحد ولكنها تنقسم إلى ليبيين وايبيريين وليجوريين نسبة الى اسم جبال الالب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف إليهم البيلاسجيون Belasgian الذين ينعزلون وحدهم في بحر « إيجه » على مقربة من اليونان .

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر ، يختلف في بعض الصفات وان تماثل في اللون أو تقارب فيه . فقد عرفت القبائل السوداء في استراليا ولكنها تخالف القبائل الافريقية في الخصائص الوراثية ، بل يقع الخلاف في بعض الملامح والاخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الأفريقية ، أو أبناء الأقاليم الواحد منها . فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الاولين قصار وثابون مولعون

بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون الى الاستقرار . ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرون السودان الجنوبي وبعض أقاليم الصحراء الى الشواطىء الغربية ، وهم جماعات شتى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع مقيمين موادعين ، وليست فوارقهم في اللغات بأقل من فوارقهم الكثيرة في الملامح والسمات والعادات .

●

وبعض هذه الشواهد المتواترة يقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال ، ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفريع في خصائصها ومزاياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك في مزاعم العنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعاً في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات .

ومن دواعي الشك القوية في مزاعم العنصريين أن كثيراً من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها إلى عواملها المحلية أو الاجتماعية التي لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية ، ونعني بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية .

فقد زعموا ـ مثلاً ـ للسلالات الأوربية انها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء و « التفلسف » المجرد الذي لا

يرمي الى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الافراد أو ما تنتفع بـــه الجماعات . وقالوا ان الشعوب الشرقيـــة لا تحب المعرفة هذا الحب ولا تتجرد للمبـاحث الفلسفية هذا التجرد ، ولكنها تعنى بالعـلم لتطبيقه في الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية ، ودليلهم على مايزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين .

وحقيقة الأمر ان البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل في سلطان الكهانات القوية وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطـــد وتبسط يديها على العقول الى جانب الدول العظيمة التي لا بد من قيامها في أودية الانهار الكبيرة . فحيثما وجد نهر كبير في صقع من الاصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الري والزرع وتصون الامن وتضمن سلامة المعاملات، ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن لها بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة والتفرد بحق البحث في العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير ، وكثيراً ما تجتمع الوظيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الارباب أو « انصاف الارباب » في التاريخ القديم . فاذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التي تتنـاول أصول الوجود حقاً للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتســع الحرية للناس يثبتون فيها وينكرون كما تتسع لهم في غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلاً بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح للنظر العاجل في النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الانسانية .

وقد كانت أمم الشرق القديم دولاً لها كهانات قائمــة قبل أن تظهر الفلسفة اليونانية بألوف السنين. فامتد تفكير اليونان الى محاريب الفلسفة التي كانت حرماً منيعاً في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس، وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين، ولو انعكس الامر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مراء

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت في أوربا حين توطدت فيها مثل ما صنعته الكهانات في الشرق القديم. فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الامم الاوربية ضُرب الحجر على العقول فاحجم الناس دهراً طويلاً عن البحث المجرد والتفكير في حقائق الوجود، وبلغت الكهانة الاوربية على حداثتها ما بلغته كهانات الشرق بعد أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ .

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوربا أن الاوربيين يمتازون على الاسيويين والافريقيين في معدن الشجاعة والبطولة الحربية، واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في معركة ماراتون ومعركة سلاميس .

فالواقع الذي أسفرت عنه دراسات الثقات من النقاد العسكريين المحدثين أن الفخار الوطني قد لعب لعبته المعروفة بأخبار المعركتين

فبالغ فيها جد المبالغة وأضفى عليها ثوباً من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ الصميم الى حيز الملاحم الهومرية .

فلم يدر في خلد « دارا » يوماً من الأيام أن يستولي على أرض اليونان لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا يخشى منها الخطر العسكري على دولته المترامية الأطراف. وإنما عناه أن يؤدب ارتريا وأثينا لأنهما تجرأتا على معاونة اليونان الثائرين عليه في آسيا الصغرى . واغتنم لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية في أثينا أو قيل أنه تلقى من زعماء الشعب المتمرد وعداً بالانضواء إليه وخذلان أولئك المستبدين . فأخمد الثورة في آسيا الصغرى ثم زحف على « ارتريا » فعصف بها وأرسل أهلها أسارى وسبايا الى شطوط الخليج الفارسي يسامون فيها سوم الأرقاء. ثم تقدم إلى أثينا وفي حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة إليه بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن في حسبان الفرس ولا اليونان واتفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم يشأ أن يطيل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاولة والعناء .

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير، شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ثم خرج زركسيس لقتال اليونان في جيش ضخم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقاً له ولم تكن من مزاياه

ومرجحاتـه ،لأنقيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جداً منقيادتـه نصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولأن الجيش كان مرتبطاً بمعونة الاسطول الذي يلازم الشاطىء ويحمل له المعونـة والعتاد ويتكفل بنقله في المجازات البحرية ، فاصبح الجيش والاسطول معـــاً مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيب علمه عن اليونان ، ولما التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسيـة عائقاً للأسطول أيضاً ولم تكنمن مزاياه ومرجحاته . لان المكان أضيق من أن يتسـع لمناورات الاسطولكله ، ولان زركسيس لم يتقدم اليه إلا لعلمه باختلاف قواد اليونان في إدارة المعركة البحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نيّة التراجع بمعظم السفن من سلاميس .

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة إلى جانب اليونان ، وأصبح تموين الجيش الفارسي ضرباً من المحال بعدضياع السفن التي مني بخسارتها في المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة في المعركة البحرية وان كان قد ظفر بالاثينيين في المواقع البرية .

ولا شك أنالذيأصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب اليونان لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل نقلهم وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه .

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم أو مناقب السلالة ،

ولكنها اختلاف في الأحوال والملابسات ، وخليق بالذين ينسون آفـــة الاختلاط في الجيوش ويحسبون مغبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم ان يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعاً الى العنصر الأوربي قد أصابتهم الهزيمة على أيدي الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم في العدد والعتاد ، ولم تعوز الصليبيين في تلك المواقع حرارة العقيـــدة وشدة المراس .

ومع هذا ألايقول دعاة البدعة الآرية أن الفرس قديمـــاً من سلالة الآريين وأنهم أقرب الى أمم الشمال من يونان الجنوب ؟

إن العالم النمسوي فريدريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل اوربا في الزمن القديم ، ومن المفيد في هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه في كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثاني من «ساعات بين الكتب»... وهذا بعض ما جاء فيه :

« .. للزنوج أثر في أوربا تدل عليه الجماجم التي وجدت في ألمانيـــا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا وموراڤيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمان سنوات في أفريقيا الجنوبية . وقد بقي أثر للأقزام السود في جبال الألب إلى عهد بليني الذي تكلم عن هؤلاء الأقزام وعززت كلامه القصص والاساطير .

ويزعم شمبرلين أن عرفـان حقوق الحياة هو مزية الآريين التي لا يعرفها الساميون في الشرق لاستغراقهم في المادة وتقديمهم المال والحطام على

الأذهان والأرواح. فيجيبه الأستاذ هرتز بجواب مفحم هو المقابلة البسيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابي في محاسبة المدينين . فاللوح الثالث من ألواح القانون الروماني يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلاً في مدى سبعة وعشرين يوماً من يوم القبض عليه وتكبيله في الحديد والحبال ، وأما شريعة حمورابي فهي تقضي بأن يخدم المدين دائنه ثلاث سنوات ، والقانون يحميه في خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق . زد على هذا ان الفرق واضح بين الشريعتين في أمور أخرى : منها ان السارق المضطر معذور في شريعة حمورابي ، وهو غير معذور بحال من الأحوال في شريعة الرومان، وأن الأب الروماني يجوز له أن يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين، وأن الزوج البابلي لا يجوز له أن يقتني السراري بغير اذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الحط من دينه إذا نقصت غلة أرضه وليس في الشريعة الرومانية شيء من هـــذا القبيل . وهكذا وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الحطام في شريعـــة حمورابي ثم من شواهد القسوة وتقديم الحطام على الحياة في شريعة الرومان.

ويرفع شمبرلين اليونـــان إلى السماء ويقول إن علومهم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها إلى طبيعتهم الآرية التي يمتازون بهـــا على الآسيويين والساميين . فيقول له هرتز إن أرسطو في زمـــانه كان يطري مواهب الأسيويين في الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذي لا علاج لـــه في المعارف الفنية والسياسية لعلة الجو التي لا تبديل لها على تعاقب الازمان ،

ويقول هرتز أيضاً إن ثوسيديد المؤرخ اليوناني ، ذكر أن اليونان كلها كانت في قبضة البرابرة ، وذكر هيرودوت أنه كان يسمـــع في زمانه لغة البرابرة في بعض أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين ـ كرشمر وكيسلنج وفك ـ أقامو الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونـان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، وأن أسماء بعض المواقع اليونانية لا ترد الى مصادر من هذه اللغة لانها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسمـاء الارباب فيما يقول هيرودوت. والاقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل أسيوي سامي وأنه تعلم العلم في البلاد المصريـــة ، وكذلك تتفق الاقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية أسيوي الاصل والنشأة ، بل يقول فيرث : إن هومر نفسه اسم سامي أسيـــوي محرف من « زومر » المغني أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الاقـوال عن الفلاسفة الآخرين .

ولا يريد هرتز أن يقف في الإنصاف عند شعب من الشعـــوب ولا جنس من الأجناس . لأنه يرى ان الفواصل بين أي شعبين في العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصي على التقارب مع تشابه الأحـــوال ومؤاتاة الأيام . فهنيبال الزنجي الذي اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده الى رتبة مهندس في المدفعية وبنى بسيدة من الاشراف، وكان حفيدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء في الدنيـا ، وسليمان وهو زنجي آخر كان في البلاط النمسوي في القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تـــاجر من

هامبورج بنت سلطان زنجبار فبلغت بادبها ورجاحة لبها مكانة تغبط عليها في البلاط الالماني وأصبحت صديقة حميمة للامبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التي عنوانها « من قصة أميرة عربية » . وقد كان الدم الزنجي يجري في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف .

يقول هرتز: « لا ترى احداً يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق أو بين الحصان الابيض والحصان الاسمر . أما في بني الانسان فالفرق اليسير — بالغاً ما بلغ من التفاهة — كاف لان ينشىء من الاوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخفها وأنآها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف في الدرجة لا في الجوهر . فقد يرينا المجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بني الانسان إنما هي فروق في درجات التجمع والتوزع في مادة صبغة واحدة مُتماثلة في الجميع » .

كلام إذا رجعنا به الى الاسانيد والبينات فهو أقوى سنداً وأثبت بينة من كلام المغرقين في تمجيد الاوربيين وتفضيلهم على جميع الشعوب، وإذا رجعنا به الى الهوى فهو أقرب الى هوانا وأولى باصغائنا من كلام أولئك المغرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تؤيد دعوى العنصريين الذين يستخلصون من النوع البشري كله نخبةً واحدة ويفردونها بأفضل المزايا وأشرف الاخلاق بين السلالات الانسانية .

ولكننا نتجاوز الحد المأمون اذا تجاوزنا هذه الحقيقة الى ما وراءها ، فكل ما هو محقق في صدد المفاخر العنصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذي يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر ،ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية . فهذه الفروق موجودة يزداد ظهورها في بعض الافراد وينقص في آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأتى لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها الا اذا تجاوزنا العيان وأغضينا عن المحسوس الماثل لجميع الاذهان .

وقد يوجد من العنصرين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة بينهما على الباحث المحقق فضلاً عن الناظر في عرض الطريق . ولكن التشابه حيناً لا يمنع الاختلاف في جميع الاحيان ، ولو ذهبنا نبطل المخالفة بين الانواع كلما وُجدت المشابهة بينها لأمكن إنكار الفارق بين الانسان والحيوان على هذا القياس ، فاذا قيل ان الحيوان يمشي على أربع أمكن ان يقال كذلك ان بعض الانسان يمشي على أربع ، وإذا قيل إن الحيوان أعجم أمكن ان يقال كذلك إن بعض الانسان أبكم وإن بعض الطير ينطق كما ينطق الانسان ، وإذا قيل إن الحيوان مسلوب العقل والتفكير أمكن أن يشار الى افراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون ، واذا قيل إن الانسان والحيوان لا يتناسلان أمكن ان يقال إن الكلب حيوان والهر حيوان وهما لا يتناسلان .

فوجود المشابهة في بعض الأفراد لا ينفي المخالفة في عامة الأفراد .. وقد يتعذر تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم المقرر ولكنه مع ذلك يبقى فارقاً حاسماً إلى ان يوجد التعريف .

والحدّ المامون الذي لانريد ان نتجاوزه في هذا الصدد هو ما أسلفناه من أن الدعوى التي تفرد بعض العناصر بافضل المزايا وأشرف الأخلاق هي دعوى يعوزها الدليل القاطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العيان . أما الاختلاف بين خصائص الأجناس فهو موجود لا شك فيه وإن تفاوتت درجات ظهوره في بعص الافراد .

فمن المشاهدات ــ ومن البديهات معاً ــ أن العزلة في النسب وفي التعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العزلة في الصفات الجسدية والخلائق النفسية على السواء .

ومن المشاهدات ــ ومن البديهات معاً ــ أن الشعب الذي يقضي عشرة آلاف سنة ولاءً في مكافحة العوارض الجوية والاحتيال على موانع الطبيعة والتأهب للمفاجآت من جيرانه ومن طوارق الأرض والماء والسماء لا يشبه شعباً قضى مثل تلك الدهور في الدعة أو في التعويل على المصادفات وهو معفى من الحيلة والجهد في صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن التوارث في الخلق والخلق منوط بالناسلات Genes التي توجد في خلايا الذكور والأناث، وان هذه الناسلات

تتقارب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد الأسرة الواحدة. ولكننا لا نعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الزمن يكفي لتحويل العوارض التي تنشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات تستقر في تكوين الناسلات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء، ولا نعرف على وجه التحقيق هل ما يوجد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل في عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف في التكوين .

والذي يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة ، ونعتقد أن العلم وشيك أن يمثله في تجربة من التجارب المقررة ـ أن فراسة الوجه الانساني تدل على كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة أوثق الارتباط بالأعصاب ثم بالعظام .

فأنت لا تخطىء تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى وجوه أبنائها ، ولا يفوتك أن تعلم ان هذا الوجه السهل الذي تغلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وجه أناس مارسوا في ماضيهم قليلا من الكفاح وقليلا من التجارب وقليلا من حوافز النفوس، وان ذلك الوجه الحازم الذي يلفتك إلى متانة الأعصاب والعظام قبل ان يلفتك الى بضاضة اللحم والدم هو وجه أناس ثابروا على الاعتزام والجلد ولم يستسلموا لسهولة العيش منذ زمن بعيد، وليس في وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الحازمة في الوجوه ، فان اللحم لا ينقلها والدم قد يخزن الناسلات ولكنه لا يخزن القوى التي هي من قبيل الطاقة الكهربائية في الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن إذن أنها تنقل في مخازن الأعصاب ثم

في مخازن العظام ، ولعلها تنحصر في الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم ـ فيما نقدره ـ أن يهتدي اليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانتباه والتنبيه .

ومهما يقل العلم غداً في هذه المسألة فالذي نجزم به منذ الساعة أن وجوه الأمم التي قضت ألوف السنين في الجلد والاعتزام تخالف وجوه الأمم التي تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ، وان الاستدلال بملامح الوجوه طبيعة في جميع الأحياء ، لأن الحيوان ينظر أول ما ينظر الى وجه الحيوان الذي يقابله ليعلم هل يسالمه او يناجزه ويتحداه ، وان كانت الوجوه لا تبدي كل ما في النفوس والعقول فهي كذلك لا تخفي كل ما في النفوس والعقول .

وحسبنا الآن ان العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأجناس تورث إلى زمن بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج في أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وان بعض العادات الاجتماعية التي تنجم من تشابه المعيشة تثبت في الافراد بعد زوال أسبابها الى حقبة طويلة ، وان الابناء ينقلونها عن الآباء بالقدوة والتلقين وان لم ينقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التي تتمثل في الناسلات .

وليس بنا هنا أن نبسط القول في خصائص الاجناس جميعها ، لأن الجنس الأسود هو الذي يعنينا منها في هذا الكتاب ، وهو من الاجناس

التي يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف في وصفه أقل من الاختلاف في وصف غيره من الأجناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على قول بعض المتأخرين .

ونحن ننقل هنا شذرات من أوصافه في كتب علم الأجناس وعلم الانسان ونصحح بعضها ببعض ونضيف إليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختبار .

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب أجناس العهد القديم :

« إن الزنجي مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور في الذقن ، أنفه أفطس واسع المنخرين ، وشفتاه غليظتان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وضرس العقل منها يظهر سريعاً ويذهب أخيراً ، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين ، وربلات ساقه معيبة ، وقصبة رجله منبسطة مع انقباض في الابهام ، ومادة الصبغة السوداء في الزنجي كما أسلفنا تسري الى عضلاته وقد تسري إلى دماغه ، وهو بالقياس الى الأدمغة الأخرى بسيط التلافيف . وميله الى الفنون قليل ما عدا الموسيقى فهو مغرم بها أشد الغرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أبناء الزنوج قلما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ، ويغلب عليه الكسل والايمان بالخرافة ومن طبعه العطف والوفاء. وهما خصلتان ترغّبان من قديم الزمن في اقتنائه واستخدامه فمنذ عصور الفراعنة في الأسرة الأولى كانوا يبعثون الحملات الى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها ، وكان عدد

الزنوج المجلوبين كبيراً على الأغلب في جميع الازمان . ولعل عبد ملك الذي أنقذ حياة النبي أرميا كما جاء في الاصحاح الثاني والثلاثين كان من الزنوج وكذلك الكوشي جداليهودي الذي جاء ذكره في الاصحاح السادس والثلاثين أذ يقول : (فارسل كل الرؤساء الى باروخ يهودى ابن نثنيا بن شلميا بن كوشي قائلين : الدرج الذي قرأت فيه في آذان الشعب خـــذه بيدك وتعال) .

« ومع قدم الاتصال بالحضارة المصرية تلك القرون الطوال لم يتعلم الزنجي منها على الارجح غير صهر الحديد ، فجاء عصر الحديد معقبـــاً لعصر الحجر تواً في تـاريخ بعض القبائل بغير توسط من عصر الشبه أو النحاس .

« والزنجي مقلد شديد الميل إلى التقليـد . ولهذا يلفت النظر أنـه لم يظهر قط رغبته في الرسم خلافاً للمصري المثقف ، بل خلافاً لابنـــاء قبائل البوشمان المقيمين بأقصى الجنوب في القارة الافريقية ، فان رسوم الحيوان على الجدران التي تحتمي بها قبائل البوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يُخجل الفنان الأوربي إذا نسب إليه ، وهي على الجملة تفضي بنا الى سؤال عن قدم الجنس الزنجي في التاريخ .

« ففي جنوب مصر تشاهد الصخور الرملية التى تغطيها رسوم الحيوان والانسان ، ومنها الحديث الذي لا شك في حداثته والقديم الذي لا شك

كذلك في قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شيء من تلك الرسوم ونقوش ترجع الى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تغيير قليل من أثر العوارض الجوية حتى ليخيل إلى الناظر اليها أنها عمل أمس القريب، وأما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارض الجوية أنها قد مضى عليها ردح طويل من الزمان ، ويرى - عدا هذا - بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار ، فإذا لاحظنا أن ذلك الأقليم كان أرضاً قاحلة من بداية التاريخ المصري دل حضور الزرافة في رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحاً مروية بالماء تغطيها أشجار الحسك التي يرعاها الزراف . وينتشر رسم النعامة في تلك الرسوم كما ينتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعامة من المقاطع الهيروغليفية التي تتمثل فيها الطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وخليق بهذا أن يدلنا على أن النعامة لم تكن معروفة عند مخترعي الكتابة المصرية الأولى ، وأن سير فلاندرس بترى على حق حين يستخلص من هذا ان الرسوم التي ذكرناها هي بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين في وادي النيل ، وتؤيد رأيه كشوف السائحين في جهات أخرى من افريقية الشمالية حيث تشاهد أمثال تلك الرسوم في جنوب تونس ومراكش ، وقد استُطيع الاهتداء إلى تاريخها التقريبي من حالة واحدة أمكن العثور عليها ، فان الدكتور بونيه Bonnet وجد في وهران ان الأداة الحجرية التي كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التي عليها الرسوم ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع النيولوتي الذي تصنع فيه تلك الآلات، ومن

يفهم أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية ، وهو عهد في مصر جد بعيد .

« فمن المحتمل اذن على ما يظهر أنه في العهد الذي كانت فيه الصحراء الكبرى مخصبة وكانت دال مصر ذراعاً من البحر الملح كان جيل من الناس قريب الى جيل البوشمان ينزل في أفريقية الشمالية بين السواحل الأطلسية وشواطىء نهر النيل ، ولعل قبائل الأكاسيين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرؤوس في أواسط أفريقية بقية ذلك الجيل القديم ، وقد أجلتهم عن مواطنهم غارات الزنج ولم تزل بهم غارات قبائل البانتو أو الكافرين حتى ألجأتهم إلى جنوب القارة الافريقية ، وقد كانوا جسدياً دون أعدائهم في القوة وإن لم يكونوا دونهم في المزايا الأدبية ، وكانوا على كلٍ ذوي ملكة فنية تعوز الزنج والكافرين على السواء وهي ملكة الرسم ، إذ لم يكن في وسع الزنجي أن يرسم أو يتمم رسوم الصخور في بلاد البوشمان ولا رسوم الصخور في أفريقية الشمالية .

وقد كانت الجبال التي تحد الصحراء من الشمال مسكن قبائل من اللوبيين منذ عهد سحيق في القدم ، وقد وصفنا هذا الجيل آنفاً وبينا أنه ينتمي إلى سلالة مميزة بين سلالات الجنس الأبيض، وربما شاهدنا اليوم في قرى انجلترة وايرلندة فروعاً من تلك القبائل على حسب الملامح الظاهرة ، والنموذج العتيق الذي تبديه لنا تلك القبائل تؤكد لنا الآثار المصرية كما تجلوه الملامح البيضاء التي بقيت له إلى الآن ... » .

●

وكلام الدكتور سايس هذا في أوصاف الجنس الزنجي وتاريخه العريق قليل الخطأ كثير الصواب ، أو هو من أصح ما كتب في هذا الموضوع ، ويزاد عليه من كتب الأجناس الحديثة أو كتب علم الانسان أوصاف أخرى يعد بعضها من قبيل التصحيح وبعضها من قبيل التكملة، نأتي عليها بإيجاز .

فاللون الاسود في الاجناس السوداء لا يتعمق إلى ما وراء البشرة الظاهرة ثم تتساوى ألوان الجسم الانساني في جميع الاجناس ، وانما يأتي السواد من صبغة في الغشاء الذي يلي البشرة الظاهرة ، ولا يسري على ما وراءه إلا عرضاً في قليل من الافراد .

وقد نفهم دلالة الضيق والسعة في تركيب الجمجمة اذا فهمنا أن جمجمة الجنس الابيض بين الاوربيين ليست أوسع الجماجم الانسانية ولا أوسع من جماجم غيرهم من الامم التي لا تجاريهم في الحضارة ، فاذا حسبنا قطر الدماغ من الامام الى الخلف مائة فنسبة العرض إليه في الزنجي سبعون وفي الاوربي ثمانون وفي الساموي من أبناء الجزر المعروفة غرب المحيط الهادىء خمسة وثمانون .

والزنجي طويل الذراعين تصل ذراعه الى الركبة في بعض الاحيان، وشعره الصوفي المعروف هو أوضح العلامات المميزة له بين جميع الاجناس .

أما مزاياه الثقافية فيجب أن نتذكر حين نقابل بين تخلفه وتقدم الأجناس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج إليه ، وان العبرة بالمجهود العقلي الذي يتطلبه فهم أمر من الأمور لا بالطبقة الثقافية التي تحسب لذلك الامر في سلم الثقافة العامة . فالمعادلات الرياضية العليا أرقى في سلم المعرفة من الجمع والطرح في الحساب، ولكن المعادلة الرياضية العليا لا تتطلب من ذهن المهندس المتعلم جهدا أكبر من جهد الرجل الزنجي حين يفهم أن خمسة في خمسة تساوي خمسة وعشرين ، ولا سيما اذا كانت نهاية العدد عنده هي مجموع أصابع اليدين والرجلين ، أي عشرين .

وقد عرف أن الزنجي في قبائل « الوى » التي تقيم عند « سيراليون» قد اخترع نوعاً من الكتابة يوائم حاجاته ولا يرجع إلى أساليب الكتابة الأخرى التي عرفت في بلدان الحضارة .

أما حظه من الفنون فليس بالحظ القليل إذا نظرنا إلى حاجاته الطبيعية ودواعيه الضرورية الى المعيشة الاجتماعية ولعل « هافلوك إيليس » حين قال : « إنه قد سلك سبيله الى الحضارة راقصاً » قد لخص ملكاته الفنية أجمل تلخيص .

فالرقص لا يكون بغير نغمات، والمرح المطبوع في الزنجي هو مبعث وحيه الذي ألهمه الرقص والغناء ، فهو عظيم الولع بالأغاني سريع الأذن إلى التقاطها حين يسمعها مرة أو مرات قليلة ، وينبغي ان نفرق بعض

التفرقة بين ملكة الموسيقى وملكة الغناء والإيقاع لأن الأصوات الموسيقية تبلغ من التراكب والتنوع مبلغاً يبعدها من الإيقاع الذي يصاحب حركات الأجسام في الرقص الفطري أو الرقص الحديث .

والزنجي يحب الغناء الراقص ويبرع فيه ، وقد عرف به حيث نزل من بلاد العالم في عصور التاريخ ، ومن هذا رقص النوبة الذي علمنا – في سيرة النبي عليه السلام – أنه دعا السيدة عائشة رضي الله عنها إلى التفرج به والنظر إليه ، وكان يعرف بالزفيف لسرعته وتوالي الحركة فيه .

ولما اشتغل الزنجي بالفنون الأخرى كصنع التماثيل كان الإيقاع رائده الأول في هذه الصناعة التي قد يظهر للوهلة الأولى أنها بعيدة عن الغناء . لان النسب التوقيعية كانت تغلب في التماثيل الزنجية على مشاهدات الحياة، وكانت منذ وجدت تنقل الشبه فتحسن نقله ولكن على نمط واحد يقل التصرف فيه ، وهي لاتزال اليوم بحيث وجدت منذ آلاف السنين .

وشيوع التماثيل وصوغ المعادن ونسج الثياب الموشاة بالخطوط والأشكال مع ندرة الرسم في قبائل الزنج أمر لا غرابة فيه ، لأن تقليد الجسم في أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده في بعد واحد ، وهو التقليد الذي يوجب التصرف لتمثيل العرض والطول والقرب والبعد حيث لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد .

ولتماثيلهم ـ مع غلبة الإيقاع عليها ـ سمة أخرى تعرف بها بين سائر التماثيل القديمة ، وهي سمة الخوف والتخويف، وهي كذلك سمة لاغرابة فيها إذا نظرنا الى الأخطار التي تحدق بالزنجي بين الوحوش والحيات وآفات الأرض وصواعق السماء ، ونظرنا إلى الغرض الذي يتوخاه من صنع كثير من تماثيله ، وهو لبس الوجوه والأقنعة التي تخيف أعداءه في ميدان القتال .

ولم تزل فنون القتال عند الزنجي ضرباً من الفن الجميل لأنها تمزج بين الحركة الرياضية وبين الرقص والإيقاع والغناء ، وليس أشبه بمناظر الرياضة البدنية من منظر الزنجي وهو يقذف بالرمح ويوازن بين وضع يديه وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد ، كأنه قد ركزه في الهدف بيمناه .

والزنجي شجاع مقدام لا يهاب الموت ولا ينكص عن الألم، وقد تلهبه السياط ويسيل الدم من أهابهِ الممزق وهو صابر لا يتلوى ولا يتأوه ، لأنه يحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت جبناً لا يجمل بالرجال ، وقد عودته مجالدة الوحوش والأفاعي والمحاذرة الدائمة من المتربصين به أن يقسو عليها وأن تقسو عليه ، وان يحتمل القسوة على نفسه كذلك .. وفيه إلى جانب الصبر والشجاعة عناد شديد حين يخشى أن يتهم بالجبن إذا صدع بالأمر فراراً من العذاب .

وهو مصدق وفيّ يؤمن بالعقائد التي توارثها عن أسلافه وأكثرها من

قبيل السحر وعبادة الأرواح الخفية ، وتقديس الرُّقَى والتعاويذ التي تعصمه من فعل تلك الأرواح .

والوفاء فيه طبيعة لأنه نشأ على طاعة الرئيس في القبيلة وطاعة الساحر الذي يعلمه ويحميه ، وقلما يغدو أو يخون إذا وجد من يكسب ثقته ويشتمل على عطفه وولائه ، وإنما يغدر ويخون إذا توجس وسلبت منه الطمأنينة ، فإنه ليرجع إذن الى حياة المخاوف والأخطار التي علمته الحذر الدائم بين الوحوش والآفات ، أو بين الأسرار الغوامض التي يتكفل الساحر بجلائها له على ما يعتقد ويروم ، فيعمل في حالة التوجس وسلب الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل الهاجم الذي يتوقع الهجوم من كل مكان . فلا يبالي ما يصنع وهو غاضب يائس محروم من العطف والحنان.

وينبغي – قبل مراقبة الزنجي وتسجيل غرائبه – أن ننسى أننا نراقب خلقة غريبة تخالف ما طبعنا عليه ، لأننا حريون ان نستغرب كل شيء إذا نحن توقعنا الغرابة والاستغراب ، فيمر بنا العمل الذي يعمله أبناء لغتنا وعنصرنا دون ان نلتفت إليه ، ثم يمر بنا هذا العمل بعينه حين يعمله الغريب فنسرع إلى التنبه له ونحسبه من البدوات التي لاتصدر إلا عن أمثال ذلك الغريب ، وكثير من غرائب الزنوج أو غرائب الأجناس عامة لا تحسب من قبيل الغرائب إلا على هذا الاعتبار .

●

ولو شاء الناس لالتفتوا إلى هذه الملاحظة في الحقائق الاجتماعية الكبيرة كما يلتفتون اليها كل يوم في الحقائق الاجتماعية الصغيرة . فإننا نسمع العامة في كل مكان يتحدثون عن بعض المشهّرين بالسوء فيقولون عنه « إن صوفته حمراء » ويعنون بذلك أنه يفعل الشيء الذي يفعله غيره فسرعان ما يتنبه اليه الناس ويتعقبونه بالذم والتشهير . ويمضي غيره بفعلته دون ان يتنبه أحد إليه فضلاً عن ذمه والتشهير بسمعته ، وهم يستعيرون هذا الوصف من لغة الرعاة الذين يفردون الخروف « الأحمر » بالزجر والعقاب وهو لا يصنع شيئاً غير الذي يصنعه اخوته في القطيع من ذوات الفراء السود . ولكنه يظهر وهي لاتظهر ، فيعاقب وحده وتنجو هي من الملاحظة والعقاب .

والجنس الأسود له غرائبه الكثيرة في الأخلاق والعادات ، ولكننا إذا بدأنا بالاستغراب أو كان الاستغراب سابقاً للمراقبة كنا خلقاء أن نجد الغرابة حيث لا غرابة على الاطلاق ، وحسبنا أن يخالف الناس في أصول الطباع وهو لا يفعل إلا ما يفعله في مكانه سائر الخلق من أبناء آدم وحواء .

أما مداركه العقلية فمن الواجب قبل الحكم على طاقتها الأصيلة أن نذكر الضرورات المختلفة التي باعدت بينه وبين أجيال البشر الأخرى في مواطن الإدراك ، وهي مباحث العلوم والصناعات .

فليس من قصور العقل وحده أن نجد الزنجي مقصراً عن الاجناس

البيضاء والسمراء في علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيميـــاء ، لان حياته لم تلجئه قط الى الملاحة في البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الامم الاخرى من حركات الاجرام السماوية ومن علوم الفلك والظواهر الجوية والانواء ، ولم تلجئه قط إلى إقامة الصروح ومزاولة البناء بالاحجـــار فيعرف من قواعد الهندسة وصناعات النحت والعمارة ما عرفته الامم التي تهيأت لها الوسائل ودفعتهـا الضرورات الى التشييـدوالتعمير ، ولم تلجئه قط إلى توقيت مواعيد الري ولا السيطرة على مجاري الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص الجوامد والسوائل ويراقب أسبـاب الخـصب والقحط مراقبة المدير المسئول عن عواقب الاهمال في هذا التدبـير ، ولم تلجئه قط إلى الافتنان في طهو الغذاء ونسج الكساء وصوغ الآنيـــة والأدوات التي تستخدم في هذه الاغراض ، ولم تلجئه قط إلى تفتيق الحيلة في حفظ الطعام وادخاره وصيانته من العطب والفسـاد ، ولا ألجاته إلى تفتيق الحيلة في ابتداع أفانين الحرب من مطاولةٍ للحصار وتنويع للأسلحة واعتماد على أسلوب في الكر والفر غير أساليب الاحياء ألمحدقـــة به في الجرأة تارة والاستخفاء تارة أخرى ، لان أبناء القارة أجمعين درجـوا على نمط واحد في الهجوم والدفاع واستخدام السلاح وتشابهوا في مواقـع واحدة يسكنها المغيرون والمدافعون ، فلا حاجـــة بهم إلى التفوق والاحتيال على مختلف المواقع والاسلحة والاساليب .

وكل ما احتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وجدوه سهلاً ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودوها ، فاذا بقي من وراء ذلك

سر يجهلونه أو محذور يتقونه فهنالك الساحر كفيل به يكفيهم مؤنته إذا صدقوه وأطاعوه ، ومن ثم عاشوا حياتهم كلهم وقضوا عصور التاريخ وما قبل التاريخ وهم بين الدعة والطمأنينة إلى العيش . وبين القتال والجلاد ، وبين التصديق والتعوذ بالرقى والطلاسم . ولزموا هذه الحالة أعواماً بعد أعوام ، أحقاباً بعد أحقاب ، بغير حاجة إلى التبديل أو التجديد .

فالامم التي عرفت الهندسة والفلك والعمارة والكيمياء وأدوات البذخ والرفاهة إنما عرفتها لانها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حقبة طويلة بغيرها ، ولو عاشت في القارة الافريقية كما عاش الزنوج لاهملتها ولم تفكر فيها ، ولا شك أن الزنوج لو بدأوا الحياة الاجتماعية حيث بدأها اولئك الاقوام لاخترعوا اختراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم بغير فارق كبير في جوهر الامور .

أما الطب ومداواة الامراض فكل ما حذقه الانسان الفطري بمعزل عن العلوم الاخرى فقد حذقه السود وبرعوا فيه ، ولم تفتهم خاصة لازمة لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الايحاء والتأثير بالعقيدة والتنويم .

ونحن لا نعني بهذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من أجناس البشر أن الفرق بينهم وبين تلك الاجناس معدوم او قريب

التحصيل والاستدراك ، ولكننا نعني انه يرجع إلى اسباب تجوز عليهم كما تجوز على غيرهم فهم وسائر البشر في أصولها سواء .

ولو نظرنا الى النصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الادبية فحصلوه وأجادوه لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأواً محموداً في مجال الآداب والعلوم ، فقد نبغ منهم في العربية شعراء معدودون من طراز عنترة وسحيم عبد بني الحسحاس ونصيب والأغربة المشهورين الذين أجادوا الحماسة كما أجادوا الغزل والنسيب ، وبين غزلهم والاغاني المرقصة التي عكف عليها السود من آلاف السنين صلةٌ قريبة لا تصعب النقلة فيها ، ولكن الطبقة الفنية – والنفسية – التي ارتفعوا إليها في ذلك الغزل تدل على أن الآباد الطوال التي قضوها في المعيشة الآبدة لا تحجبهم عن الظرف الاجتماعي إذا وجدوا السبيل اليه ، وما احسب شاعراً من شعراء الحضارة يترفع عن توقيع هذه الابيات التى نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال :

ماذا يريد السقام من قمر كلُّ جمال لوجهه تبع
ما يرتجي ؟ خاب ! من محاسنها أماله في القباح متسعُ ؟
غيّر من لونها وصفّرها فارتد فيه الجمال والبدع
لو كان يبغي الفداء قلت له ها أنا دون الحبيب يا وجع

ففي هذه الابيات من روح الفكاهة ودعابة الظرف والفطنة إلى

محاسن الملاحة المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل .

•

ويبدو لنا أن فوارق الإدراك لم تضلل العقول في أمر الجنس الأسود كما ضللها ذلك اللون الماثل للنظر قبل مثول الفوارق العقلية والخلقية للبصائر والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لا هوادة فيها ، وانطلق النخاسون في طريق البحر الأحمر وبحر الهند ونهر النيل يحملونهم إلى بلاد العرب وما بين النهرين كما يحملونهم إلى مصر واليونان والرومان ، ولم تكد الدنيا الجديدة تنكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها في هذا السباء الذي بدأت فيه أقدم الأمم من ألوف السنين، ولعل فضائل هذا الجنس – وفي مقدمتها الوفاء والصبر والقناعة – كانت أسرع من نقائصه في الجناية عليه ، ولهذا تمادى النخاسون في نقل السود إلى امريكا وانقطعوا عن نقل الهنود الحمر الى اوربا بعد سنوات قليلة ، لإخفاق التجربة وضياع الأمل في صلاح هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المفيد .

وخلاصة ما يقال في تاريخ الجنس الاسود إنه جنس قديم معرق في القدم يوغل في أصوله إلى ما قبل التاريخ بزمن بعيد .

وإنه جنس قد وقف به النماء عند حدود الفطرة الاولى لان معيشته

في القارة الافريقية لم تلجئه إلى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع الصناعات وتدبير وسائل الادخار والحيطة للمستقبل البعيد ، ولكنه عرف كثيراً من الفضائل والملكات التي توائمه في بيئته المستقرة، لأنه عرف النضال والمرح والإيمان . فعرف الشجاعة والوفاء والصبر على الألم . واستنبط الفنون التي توافق مرحه وايمانه بالمجهول .

وكإنما اتفقت عليه منذ القدم عوادي الاجحاف جميعاً ولم يسعده حظه بباعث واحد من بواعث الانصاف والرعاية ، فاصطلحت عليه أسباب الجشع والاستغلال وغرابة المظهر وقلة الحيلة في الدفاع وسهولة التطبيع والتعويد ، وجعلته هدفاً يسيراً للقناصين والنخاسين الذين يحفزهم الطمع ولا يزعهم عنه وازع من وشائج العطف أو زواجر الأخلاق .

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طوالاً بعد عصور طوال إلى عصرنا هذا الذي نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الانسان وحقوقه، واشتعلت في الكرة الارضية حربان عالميتان في النصف الاول من هذا القرن العشرين ولا تزال الكلمة الباقية التي تقال لإنصافه وحماية حوزته أكبر وألزم من الكلمة التي قالتها الحضارة الحديثة إلى الآن .

ففي هذه السنة التي نحن فيها (١٩٤٥) انعقد مؤتمر الجماعات التي تشتغل بالتبشير في الجزر البريطانية ووجه الى العالم نداء شديدا أهاب فيه

بأمم الحضارة إلى محو الفوارق القائمة بين البيض والسود فى المستعمرات وأعلنت لجنة الكنائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهي ترجو معه « أن تنجز الامم المتحالفة وعودها المتكررة بالتسوية بين الالوان والعناصر في فرص التعليم والحياة » .

ولا تزال الفوارق الجنسية قائمة في الويات المتحدة على تعدد الدعوات فيها الى المساواة والإعراض عن المزاعم العنصرية التي روّجها خصوم الدولة الامريكية في الحرب العالمية الحاضرة ، ففي الولايات الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بنصوص القوانين والاوامر الحكومية ولا يباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة ولا النزول معهم في الخانات والفنادق ، ولا تعليم أبنائهم في المدارس التي يتعلم فيها أبناء البيض ، ولما صدر القانون الذي يخول الطفل الاسود حقاً في التعليم كحق الطفل الابيض مع انفصال المدارس والجامعات - تبين من التنفيذ أن المساواة صورة لا حقيقية ، وأن التلميذ الابيض يكلف الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالاً في السنة ولا تزيد كلفة التلميذ الاسود فيها على تسعة عشر ريالاً على الرغم من نص القانون، وتبين أن الفارق في ولاية مسيسيبي يتجاوز ذلك كثيراً لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالاً ولا تزيد نفقة الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال .

وقد ألغي في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة بين البيض والسود ، ولكن هذه التفرقة ما تزال قائمة بحكم العرف والعادة على نحو لا يقل في صرامته عن صرامة القانون ، فلا يرى الاسود نازلاً بفندق من الفنادق الكبيرة أو جالساً في مطعم من المطاعم الفاخرة وإن كان من أصحاب الثراء .

●

وإبطاء الحضارة الغربية كل هذا الإبطاء في تقرير مبدأ الانصاف – فضلاً عن تنفيذه – هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الاسلامية في هذا المضمار الانساني المتوعر المهجور من قديم الدهور ، فانها قد خلصت إلى أدب الانصاف والمساواة بين بني الانسان منذ أربعة عشر قرناً بغير ما حافز من المصالح الإقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق، بل خلصت إليه على كره من تلك المصالح وعلى الرغم من تلك العادات ، واجترأت على سلطان المادة الطاغية بسلطان الروح الرفيع ، ولا يحسب الدين ديناً ما لم يكن له سلطان روحي يغلّبه على طغيان المصالح والشهوات .

●

وقد كان هذا السلطان الروحي هو السلطان الذي أذعن له السادة والعبيد عند ظهور الدعوة الاسلامية بين قبائل البادية العربية، واشتمل على بلال بن رباح صاحب هذه السيرة وهو مولى ضعيف غريب عن ارض الحجاز ، كما اشتمل على أبي بكر والفاروق وعثمان بن عفان وهم سادات مكة واقطاب قريش.

والذي يعنينا في هذه المقدمة عن تاريخ الأجناس والجنس الاسود خاصةً أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال .

وليس الملتقي بينها بعسير .

فمن مجمل الصفات المتواترة التي وُصف بها بلال يتراءى لنا أنه قريب الملتقى بخصائص الجنس الأسود التي أجملناها في هذه الصفحات .

ولا نحب ان نقول ان الذي يتصف بتلك الصفات لن يكون حتماً لزاماً إلا من الجنس الأسود بخصائصه المعلومة ، فلا يزال من الجائز جداً أن يكون بلال على تلك الصفة ـ فيما عدا اللون ـ ولا يكون من القبائل الأفريقية السوداء ، ولكن الذي يقال ولا يتجاوز حد الصحة في المقال أنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من غرائب المصادفات ، ولا داعية عندنا

الان لتقدير تلك المصادفات .

فلو لم يكن بلال أسود الإهاب لكانت في صفاته النفسيـة علامات لا تستغرب في الاجناس السوداء لأنها من خصائصها المميزة التي تبرز فيها عند مراقبتها على الإجمال ، ومنها حب الإيقاع الموسيقي وسليقة الإيمان والتضحية والعناد والصبر على عذاب الجسد والوفاء لمن يستولي منه على مكان الثقة والاعجاب .

ولكن الجنس الاسود لا يحتويه كله على ما يظهر من بعض صفـاته الجسدية فيما عدا لون السواد ، فلم يوصف بالفطس ولا بغلظ الشفتين ولا بالشعر المنقبض المتصوف الذي خص به الزنوج ، والذين يُشاهدون على هذا التكوين بين أمم أفريقية الشرقيـة كثيرون حتى هذه الأيام ، وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قديم بالأجناس السامية أو بالعربية منها على التخصيص ، لأن رحلات العرب الى سواحل افريقية الشرقية قديمة قبل الاسلام بزمن بعيد .

ومن علماء الأجناس من يربط بين جلة الاحباش وجـلة العرب – ولاسيما اليمانية – برباط وثيق ، لان عبور أهـل اليمن الى الحبشة وعبور أهل الحبشة الى اليمن ميسران معهودان من

أقدم العصور .

وقد قيــــل في تاريـخ بلال انه من الموالي المولدين بمكة أو بالسراة اليمانية ، فأصدق ما يقال فيـه أنه من سلالة زنجيــة سامية ، وأنه على أقرب مــــا يكون الزنج من خلائق العرب أو المستعمرين .

●

العَرَبُ وَالأُجنَاسُ



ألممنا في فصل سابق بأقوال بعض العلماء في مسألة العنصر وفوارق الأجناس ، فأياً كان قول العلم في هذه العصبية العنصرية ـ أو الجنسية ـ فالقول الذي لا ريب فيه أن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه العصبية ، ويلتبسان في بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما : وهما المفاخرة الجنسية والعداوة الجنسية .

فقد تكون مفاخرة جنسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة جنسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة طبيعة الجماعات حيث كانت من قديم أزمانها ، وقد توجد المفاخرة في الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب ، وقد تتفاخر البطون من القبيلة الواحدة ولا تتعادى ، وقد تتعادى ولا تتفاخر ، وقد تتفاخر وتتعادى في آن ، وهي من جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا في مصر مفاخرات كثيرة بين أبناء القاهرة وأبناء الاسكندرية، وبين أبناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول اللهجات والأذواق والأطعمة لا تتجاوز الفكاهة إلى الجد في عامة أوقاتها .

ومثلها متكرر يشاهد بين أبناء الأقاليم الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات في صقع واحد ولو من أرومة واحدة .

وقد تتجاور العناصر ألوف السنين ولا تتجاوز المنافسة بينها حدود المفاخرة اللسانية والمنافرة الكلامية ، ولكنها تتجاوز المفاخرة العنصرية إلى العداء العنصري كلما اندفعت إلى التنازع بينها على مغنم واحد لا يتأتى لإحداها بغير القضاء على الأخرى أو إذلالها ، ويستحكم العداء بينها على الزمن إذا تداولت بينها الذحول والغارات فلا يهمها المغنم كما يهمها الثأر والانتقام .

والعرب قد عاشت في جزيرتها بمأمن من سطوة جيرانها إلا من أطراف الجزيرة ، حيث لا يبلغ النزاع بينهم وبين أولئك الجيران مبلغ الإبادة والإستئصال .

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهم مكانهم . فوُجدت بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء اللدود .

وأملى التاريخ على العرب وجه المفاخرة إملاء لا اختيار لهم فيه .

فقد كان جيرانهم الفرس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيّرون جيرانهم العرب شظف العيش وسوء الطعام والكساء ، وكان العرب لا يجهلون حظ هاتيك الدول من الجاه والترف وغزارة الأمواه والأزواد ، فإذا فاخروهم تركوا المفاخرة بطعام أمتع من طعامهم وكساء أنفس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم ، ورجعوا إلى فخرهم الذي يملكونه ولا يهابون المقالة فيه ، وهو فخر الفصاحة وعراقة الأحساب والأعراض .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لا حساب عندها للحسب العريق .

وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقالة فيه ، ولم ينشب بينهم وبين مفاخريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبيدون فيه أو يبادون . فوقفوا بالمفاخرة دون اللدد في الخصومة الدموية ، ونُقلت عنهم وعن مفاخريهم أحاديثُ مستطرفات في هذا الصدد هي أقرب إلى مساجلات الأدباء في موقف الدعابة منها إلى المنازعات التي تسفك فيها الدماء .

إن فخر الروم والفرس ببياض الالوان قال العرب : تلك وجوه مقشَّرة !

وإن فخر الروم والفرس بالخوان الحافل فخر عليهم العرب بالجود وبذل الموجود .

وساجلوا وسوجلوا في هذا المجال فاثبتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عداء العنصر أو عداء الجنس كما عرفه البيض والحمر في القارة الامريكية ، أو كما عرفه الاوربيون والأصلاء في القارة الأسترالية أو كما عرفه السلافيون والتيوتون في أوربا الشرقية ، أو كما عرفه الاسرائيليون والكنعانيون أو عرفه المغاربة والأسبان في زمن من الأزمان .

وإذا سمعت الزراية بالعبيد على لسان العربي فآخر شيء يتبادر إلى الذهن أنهم يقصدون عداء الألوان والأجناس ، أو يخصون اللون الأسود بذلك الازدراء أو ذلك العداء .

فقد غلبت على بعض العرب أنفسهم سمرةٌ تضرب شديداً إلى السواد، وكان من سادتهم مَن وُصف بحلكة اللون وشابه الزنج بالأهاب الخشن والبشرة الفاحمة .

فإذا قالوا « العبد » فهم لا يقصدون الزنجي ولا يخصّون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفكّ إساره وكل جليب يباع

ويشرى في الأسواق ، ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

ويقصدون على الأخص كل إنسان مجهول النسب لا ينتمي إلى أصل من أصولهم المشهورة .. إذ لم يكن في وسعهم أن يجهلوا مفخـرة النسب وقد فرضتها عليهم معيشة البادية ومفاخرة الحاضرة مئات السنين .

فلا يُزدرى العبد عندهم لأنه حالك اللون ولا لأنه من جنس يعادونه ويعاديهم ، ولكنه يزدرى لعلة اجتماعية لا لعلة عنصرية ، وقد تزول هذه العلة من حيث لا تزول علل العناصر وعداوات الأجناس .

وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثر فيه جلب الزنوج السود من القارة الأفريقية إلى فرضات البحار المقاربة للعاصمة العربية ، وأكبرها البصرة في ذلك الحين . فشجر بين الزنـــج والعرب يومئذ عداء يشبه عداء الأجناس في عصوره الحديثة والقديمـة ، ونشبت فتنة الزنج بالبصرة على مثال الفتن الجنسية التي نشهدها اليوم أو توصف لنا في التواريخ ، ولكنها كانت غاشية عابرة ، فذهب أثرها بعد ذهابهـا بسنوات .

أما في غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة في بوادي الجزيرة وحواضرها ، وكان الرجل العربي يولد الجارية السوداء ويتبنى وليدها اذا نجب وصلحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة ، وربما كان له

عبد يحمد خصاله فيعتقه ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات محرم منه ، ولا يمنعه أن يصنع ذلك عداء الجنس أو بغضاء اللون، بل يمنعه عرف اجتماعي توجد له النظائر في كل عرف يدور حول الزواج ، ولو بين الأقرباء .

وعلينا أن نحترس كثيراً من نسبة كل عبد أسود يذكر في أيام العرب الى الزنج أو أبناء حام كما يعرفون في علم الأجناس .

فلعله أن يكون سامياً عبر الى أفريقية كما عبر الأثيوبيون ، ولعله أن يكون خلاسياً من الساميين والحاميين . ويغلب على الظن أن بلالاً – صاحب السيرة في هذا الكتاب – كان حامياً حبشياً ولم يكن زنجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التي تميز الأجناس والسلالات ، ولم يذكروا من أوصاف بلال الفطس ولا الشعر الصوفي « المفلفل » اللذين يميزان معاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أضنك العبيد حالاً قبل الإسلام ، وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية ، ظلماً للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد . فقد كان شان العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية ، وكان العبيد أسوأ حالاً من وضعاء النسب لأنهم لا ينسبون الى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة ، فكانوا

ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة .

وقد تكفل الاسلام بهذا الخلاص من جانبيه ، لأنه ينكر ظلم القسوة ، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة .

فحق له أن يلبي دعوته ، وأن يدعو اليه .

●



الرق في الإسلام



كان الايمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الانسانية أوطريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .

لأن الايمان بالروح يعلم الانسان التبعة « وإن كل نفس بما كسبت رهينة » وهذا هو أساس التكاليف والحقوق .

ولأنه يوحي الى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء الايمان بالروح سابقاً للرق لامتنع الاعتراف به في الأديان التي تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الانسان بيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها السادة والعبيد ، فضلاً عن الايمان بتفضيل روح العبد الصالح على روح السيد الذي يعوزه الصلاح .

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الانساني بالآف السنين ، وكان الرق في تلك الأحقاب الطوال قد امتزج

بنظام الثروة ونظام المعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أذواق الناس وأخلاقهم في العصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذب مبلغ الترفع عن تسخير الآدميين كما يسخّر الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء . فدارت الأديان « الروحية » حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه في معظم الأحوال ، ولم تكن للعبيد أنفة تعزف بهم عن هذه المنزلة التي فرضتها عليهم ضرورات الزمان ، ومن كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب.

ومع هذا لم يكن للمصلحين الدينيين بدٌّ من التوفيق بين عقيدة الروح وإباحة بيع الانسان وشرائه كما تباع الآلات .

فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد بجسده حرٌّ بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد قد يرتفع إلى مراتب القديسين .

وكتب القديس بولس الى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لساداتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ، وكان الحواري بطرس يامر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من سادتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح ، وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومة في المناشير والعظات، وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح . فاستند الى أقوال رسل المسيحية كما استند

إلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الأعمال ولم ير في نظام الرق شيئاً يعاب ، فما دام في الناس من يعجز عن كفالة نفسه فعليه أن يعيش في كفالة سواه ، وتبعه تلميذه الناسك لأن الزهد في الحياة يجعل القناعة بأبخس المنـــازل أمراً سائغاً لا غضاضة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرفضـون الحياة.. وقد واجه الرقّ بهذا المزاج فحسبه من الحرمان الذي لا يناقض الخطة المثلى في آداب الديانة وفضائل السلوك ، وسهل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أسرار الضرورات وتقييد بعض الحركات ببعض في نواميس الطبيعة وخصائص التكوين .

ومن أعجب العجب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوان حتى ما يؤذي منه ولا يفيد ـ قد بلغت عقائدها القسوة القصوى في معـــاملة الأرقاء ، فإن أناساً من براهمة الهند كانوا يضربون الذلة على العبيـــد المعروفين باسم السودرا ، لأنهم خُلقوا من أسفل أعضاء الإله فلا تبرحهم وصمة الذل مالبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن يُسَل لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من الناس .

وكانت الحضارة تلطف من هـــذه القسوة بعض التلطيف فتجري العادة أحياناً في الأمم المتحضرة بالشفقة على العبيد والجواري وتخويلهم بعض حقوق المساواة . فكان المصريون الأقدمون يجيزون معاملة الاماء كما تعامل الزوجات الحرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق في

غير جريرة ، ويُلزمون الرجل في موقف الحساب بعد الموت أن يبرىء ذمته من إيذاء العبيد والاساءة اليهم ، ويجعلون هذا الابراء جـــوازاً لا مناص منه إلى حظيرة الأرباب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأجراء لأنهم كثيراً ما كانوا يؤدون في مصر عمل الأجراء إن لم يكن عمـــل العبيد . فجنحت بهم الرغبة والقدوة الى انصاف الأرقاء والأحلاس ، وأنكروا الإرهاق كما أنكروا الضرب والإيذاء في معاملة الأجراء .

وقال هيرودوت إن الفرس في زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون للسيّد ان يقتل عبده او يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى . وكانت شريعة الفرس ارفق بالعبـــد على الجملة من شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترخص له في الراحـــة وتكره العدوان عليه ، وربمـــا سرى اليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرّي واقتناء الزوجات من الاماء ، ووافق ذلك معيشة الحضارة في المـــدن الكبيرة وقلة الحاجة الى إرهاق الأرقـــاء لتحصيل ضرورات المعيشة ، ولعلهم قد استفادوا ايضاً من سنن العبرانيين في معاملة الرقيق ، لطول العشرة بين اليهود وبين شعوب النهرين .

ولم تسلم أمة قط من اقرار نظام الرق وازدراء العبيد من اختلاف عناصر الأمم وأجناسها .

فما قيل عن فضل أمم الشمال الأوربية على أمم الجنوب كافـةً في هذه المسألة خطأ ظاهر في البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أمم الشمال لم تخل من نظام الرق سمُوّاً في الأخلاق أو تفرداً بالصفات الانسانية التي تُدّعى للشماليين في الزمن الأخير ، ولكنها خلت من نظام الرق لأن اقتنـــاء الأرقاء في تلك البلاد البـــاردة يكلفها أكثر مما يَحُطّ عنها ، فهي فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق، وهي مزية البقاع لا مزية عناصر الشمال. ومازال الرقيق محروماً من المساواة الانسانية إلى هذا اليوم في الأمم الاوربية والامريكية . وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات إذا هربوا من الاسر أو أغلظوا لمواليهم في الكلام ، ولم يكن على السيد الذي يقتل مولاه إرهاقاً أو تعذيباً عقابٌ منصوص عليه .

تلك كانت حالة الرقيق جملةً في القرون الاولى وفي القرون الحديثة، وقبل ظهور الاديان « الروحية » وبعد ظهور تلك الاديان .

ومن الاسباب التي تذكر لتحسين أحوال الارقاء ومنع الاتجار بهم في العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان ييسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد التي تستخدم العمال الاحرار في الصناعة وتبذل لهم أجراً لا يطمع العبيد السود في مثله ، وكان اقتناء العبيد يضير أولئك العمال الاحرار في الوقت الذي عرفوا فيه حقوقهم ونهضوا للمطالبة بها ، وساعدهم على المطالبة بها أصحابُ الاموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء .

ومهما يكن الرأي في حقيقة هذه الاسباب فهي مما يدخل في التقدير عند بيان فضل الاسلام وسبقه للحضارة الحديثة إلى أرفع الآداب وأكرمها في مسالة الرق ومعاملة الارقاء .

فلم تكن معاملة الارقاء على الوجه الذي أمر به الاسلام مصلحة اقتصادية على فرض من هذه الفروض ، بل ربما كان من المصلحة إبقاء الرق على نظامه الأول ليفرغ الارقاء لاعمال المعيشة والسخرة ويفرغ الاحرار لأعمال الجهاد والرئاسة .

كذلك لا يقال ان الإسلام تهيّب النظام القائم في المجتمعات القديمة كما تهيبتها الاديان الروحية فدارت حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه في معظم الاحوال ، ولم تاخذ بأيدي العبيد الا بما كانت تفرضه عليهم من الطاعة وتزجيه اليهم من العزاء المنظور في الدار الآخرة .

فلا يقال ان الإسلام قد منع رق المسلم وقصر الرق على الاسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الايمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . فان الواقع أن أدياناً « روحية » كثيرة قد وقفت بين الأمرين على نحو من التوفيق .

ولا يقال ان الاسلام قد جاء بآداب الرفق بالرقيق بعد ذهاب الحاجة الى تسخير الارقاء وتبدّل الأحوال الاقتصادية في مجتمعات المشرق والمغرب .. فان الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة في البلاد الشرقية

والغربية الى زمن يذكره الأحياء . ولا تزال قائمة حتى اليوم في بعض الأنحاء .

فإنما هو اذن فضل خالص من علل المادة ودواعي الثروة الاجتماعية ، وانما هو نصر صريح في عالم الروح يحسب للدين الاسلامي وحده بين سائر الأديان .

●

كان في وسع الدولة الاسلامية أن تمر بنظام الرق في العالم العربي وفي العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك – في حينها – إغضاء معيباً تسال عنه ، لأن مسالة الرق لم تبلغ يومئذ ان تكون من المسائل الناطقة التي يؤوّل السكوت عنها بالاغضاء أو المداراة .

ومن المحقق أن الدعوة الاسلامية لم تكن تخسر شيئاً لو أنها أهملت مسألة الرق في أول ظهورها ! لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها في إعتاق العبيد والأماء ، كلما ساءت حالهم عند سادتهم بدخولهم في دين الاسلام . وكان أبو قحافة يمثّل الرأي الحصيف وهو يأخذ على ابنه الصدّيق بذل المال الكثير في سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر في إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق

القديم غير باعث الفضيلة المثالية التي تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال .

وقد تبدل نظام الرق على يد الاسلام في أوسع نطاق للتبديل أو على أعمق أساس يبنى عليه كل تبديل في أمثال هذه الانظمة الاجتماعية ، لأنه عمد الى أساس التفرقة بين الأجناس والأقوام فمحاه أو عفى عليه . وعلّم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى، وألقى اليهم في أحاديث النبي القدسية أن « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » أو كما قال .

وحصر الرق مع هذا في سبب واحد من أسباب الاسترقاق ، وهو الأسر في ميادين الحروب ،فلا يُملَك الرجل أو المرأة بالنخاسة والاختطاف، ولا يعد من العبيد إلا من وقع اسيراً في ميدان القتال الى ان يفدي نفسه أو يفديه من يفديه .

وقد مضت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الاسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة اليه ، ولا يزال الأسر مشروعاً والفداء واجباً ولو بتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام الفداء ، ولا يقع في العقل نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقي الأسر والاستئسار مقبولين في شرعة المتحاربين .

ولم تنته عناية الاسلام بمسألة الرق بتضييق نطاقه وحصره في هذا

السبب الوحيد من اسباب الاسترقاق ، بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو الإعتاق بغير فداء : « فإمّا مَنّاً بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب اوزارها».

واوجب على المسلم ان يقبل من الأسير تنجيم فديته حتى يستوفيها على سنة الرفق والسماحة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم .. » .

وقد جعل الإعتاقَ حسنة تكفّر عن كثير من السيئات ، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات واطعام المساكين ، وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بوصية الرفق بالآباء والأقربين : « ... وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » .

وكانت وصية النبي للمسلمين قبيل وفاته « الصلاة وما ملكت ايمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديثه في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الاحاديث « لقد اوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وتجاوز الاشفاق على الارقاء من سوء المعاملة الى الاشفاق عليهم من الكلمة الجارحة فكان عليه السلام يقول : « لا يقل احدكم عبدي أَمتي . وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » .

أما ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل فهو ذنب كفارته العتق ، أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » . فاذا قتله فهو يقتل به في قول اشهر الفقهاء .

وقد فضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرّة المشركة ، وأوجب عتق الأمة متي ولدت للرجل واعترف بأبنائها .

وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه زيداً وزوّجه بعقيلة حرة من عقيلات بيته ، وتبناه وأقام ابنه أسامة من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين ، وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في ملك يده وفي ملك غيره تفوق سماحة هذه الوصايا على فرط ما فيها من السماحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر ، وإلى آداب جميع العصور ، فكان يؤاكلهم ويلبي دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين !« هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن، كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وأكرم ما قال في هذا الباب – وكله كريم – « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

●

هذه الوصايا والمعاملات كانت كلها فيض الآداب العلوية الرفيعة ولم يكن شيء منها قط من إملاء الضرورات الاجتماعية أو المصالح الاقتصادية، بل هي ولا شك تقررت على الرغم من ضرورات الاجتماع ومصالح الاقتصاد التي كانت غالبة في تلك الآونة على الجزيرة العربية وعلى غيرها من أرجاء العالم المعمور.

وهي لم تتقرر – بالبداهة – دفعة واحدة في مستهل الدعوة الاسلامية ولا تقررت كلها أو بعضها قبل إسلام بلال وزملائه من الموالي والإماء. فقد تتابعت الأحكام الاسلامية في معاملة الرقيق على أثر قيام الحرب بين المسلمين والمشركين، وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك الفريقين.

فمن الخطأ أن يقال إن أحكام الرقيق هي التي جلبت الى الاسلام مَن دخل فيه مِن الموالي والإماء أو إنهم سيقوا الى الدخول فيه طلباً لراحة الجسد وهرباً من مظالم السادة ومتاعب التسخير.

ان يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة في اقبال بلال وزملائه على الاسلام فهو على التحقيق أثر المثال الرفيع الذي تمثلوه في معاملة النبي عليه السلام لصحبه ومواليه ولكل ضعيف منتمٍ اليه. ولم يكن سراً مجهولاً بينهم ان النبي عليه السلام أحسن الى مولاه زيد بن حارثة فأنساه أباه وذويه، وجاءه هؤلاء يفتدونه ويعرضون عليه الحرية والعودة الى احضان أهله فآثر صحبة النبي على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفي ظلال وطنه

الذي فارقه مكرهاً منذ سنين .

فهذا المثال قد كان له ولا ريب أثره البالغ في تحبيب الاسلام ونبي الاسلام الى الأرقاء وغير الأرقاء .

ولكنّ طلب الإسلام عند اولئك الأرقاء لم يكن طلباً لراحة الجسد ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

فإننا لا نعرف في تواريخ العقائد الدينية أن احداً يقبل على الدين مساومة على الراحة ورفاهة العيش ، ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة العيش قط أعوان عقيدة ناشئة في عهدها الاول وهي مقدمة على المغامرة والجهاد تتطلب الضحايا وتفرض على الاتباع ألوان الفداء .

وفي حالة بلال وزملائه خاصة لم يكن الاسلام راحة لهم ولا انتقالاً من جانب الخطر الى جانب السلامة والامان ، بل كان على نقيض ذلك انتقالاً من جانب السلامة والامان الى جانب الخطر الذي لا يدفعه عنهم دافع . لأن العربي يحميه من الضيم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر على حياته وماله إلا في قتال صريح بعد يأسٍ من الوفاق ، ولاحاجة الى قتال صريح أو غير صريح لإهدار دم العبد المملوك المرهون بمشيئة مولاه ، وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه وإعناته وحرمانه الراحة وضرورات الحياة .

كذلك لم يكن طلب الاسلام عند هؤلاء الأرقاء طلباً للنقلة من رق ثقيل إلى رق خفيف، أو من سيد قاسٍ الى سيد رحيم. لأن الاسلام في

مبدأ أمـره لم يكن ليخرجهم من ربقة الأسر عند سادتهم الأقـوياء ، ولم يكن العتق جزءاً موعوداً لمن يُغضب سيده المشرك ويُرضي النبيّ عليه السلام بالدخول في دينه . فإنما جاء العتق مصادفة واتفاقاً بعد تشديـــد العذاب على اولئك الصعفاء المساكين، وقد كان العذاب يقيناً لا شك فيه ، ولم تكن النجاة إلا وعداً مأمولاً لم تبد تباشيره للعيان .

فمن الخطأ كما أسلفنا أن يعلل ايمان العبيد والإماء بأحكام الاسلام في معاملة الأرقاء ، أو بالطمع في الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فإنما عرفت تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الاسلامية بزمن طويل ، وانما كان العناء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ عن دين مـولاه ، وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، ان سلمت له الحياة .

وما زالت العقـائد أكرم على ضمير الانسان من هذه المسـاومات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيـع والشراء ، وما زال قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي البغية منها ، وتهون في سبيلهـا بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد .

وآية ذلك أنه لم يؤمن انسان قط لغنيمة تخصه ولا تعم سواه .

انه ليساوم في سوق التجارة على الغنيمة التي تخصه دون غـــيره ، ولكنه اذا آمن بعقيدة من العقائد التي تتناول الحيـاة والموت فلا بد من غاية تعمه وتعم غيره على السواء ، ولا بـد من الأمل العـام الذي يتخطى مصالح الفرد ومساومات الآحاد .

وبلال حين آمن بالاسلام قد آمن حقاً بالدين الذي ينصف العبيد ، ولكنه قد آمن به على السنة التي ترضي الكرامة الانسانيـــة لا على سنة المساومة والمصافقة ، أو هو قد آمن به انساناً كما آمن به السادة الاحرار القادرون على شراء العبيد والاماء .

وأقل ما يقال في تعليل اسلامه انه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة، وانه ايثار للخير الكبير على الخير الصغير ، وانه استقامة طبع تهتـدي الى الصراط المستقيم ، وانه شوق الى الحق الذي يريح النفوس وليس بشوق الى الرفاهة التي تريح الاجساد .

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامة بالمساواة بين جميـع المسلمين كان أحب الى اولئك العبيد والاماء من كل راحة يرجونها بعد الدخـول في الدين الجديد أيّاً ما كانت الثقة بتحقيق ذلك الرجاء ـ في أجل قريب أو بعيد .

وقد غبرت القرون على وصايا الإسلام بالرقيق ، وعمـــل بها من المسلمين من عمل وخالفها من خالف، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميـع الاوامر أو النواهي التي تشرعها العقائد والاديان .

ولكنها سواء روعيت أو خولفت . قد كانت كسباً عملياً له أثر من النفع الواقع في تاريخ بني الانسان ، وقد بقي لها هذا الاثر الى ان بطل الاسر وبطل الرق بشتى ذرائعه ودواعيه وارتفعت للحرية الفرديـــة

والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط في زمن من الازمان .

فبعد وصايا الاسلام بألف ومائتي عام ، وفي العصر الذي راحت فيه اوربا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال ، نزل بمصر فوج من الاسرى اليونان يزيدون على خمسة آلاف وخمسمائة ووزعهم الولاة على بيوت السراة وذوي الثراء في القاهرة والاسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الاسرى الى بلادهم واعتاق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال ذويه ، فآثروا جميعاً البقاء في البيوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير اربعمائة أو دون ذاك ، كما جا في بيان المندوب الانجليزي الذي نيط به تنفيذ تلك الشروط .

ومهما يقل القائلون في تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذي لا ينكر في هذا المقام ولا يُنسى هو : أن أولئك الجند الأوربيين الذين أسروا وهم يعلنون قضية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم المسلمين لو كانت وصايا الاسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء .

فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان الفضائل المثالية في نشاتها الأولى ، وقد ينشدها المؤمنون بها حباً للمثال الأعلى وطموحاً الى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك ان توزن بالميزان وتشخص للعيان .

نَشْأة بِلال



اتفقت الأقوال على أن بلالاً كان من أبناء الحبشة المولدين ، وجاء في وصفه أنه رضي الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طوالاً — أي فيه انحناء — كثير الشعر خفيف العارضين » .

وهي أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد كانوا كثيرين بين الحبشة واليمن من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع خلوصه من فطس الانف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من السلالتين . وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شيناً على السود ، فنفى الثقات هذا الزعم وأكد نقيهم أنه كان يقيم الاذان وفيه السين والصاد .

ويختلف في مولده فيقال إنه ولد في مكة ويقال إنه ولد في السراة ، وربما رجح القول الاخير لان السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالاً رضي الله عنه رجع اليها حين فكر في الزواج .

وأرجح الاقوال في سنة مولده أنه ولد قبل الهجـــرة بنحو ثلاث واربعين سنة ، ثم تختلف الاقـــوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر سنين .

وأبوه وأمه معروفان : أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حمامة ، وكان ينبز بابن السوداء إذا غضب منه غاضب، ولعل أمه كانت من إماء السراة أو إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة .

ويحسب بعض الإفرنج الذين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات التوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدينات بالمسيحية من أبناء الحبشة ، وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام برسالة التوحيد ، وهو حسبان جائز ولكنه بعيد ، لأن الاحباش في ذلك الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون برسالة التوحيد المحمدية ذلك الترحيب .

ويذكر لبلال أخ يدعى خالداً ويكنى بأبي رويحـــة ، والأغلب في الروايات المختلفة أنه كان أخاه في الإسلام على سنة المؤاخاة بين الصحابة التي سنّها النبي عليه السلام . وقيل إن له أختاً تسمى غفرة هي مولاة عمر ابن عبدالله مولى غفرة المحدث المصري ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما رُوي من أخباره .

وكانت نشأة بلال بمكة في بني جمح من بطون قريش المشهورة .

وفي بني جمح هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد الثلاثة المختارين من مؤذني النبي ﷺ ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرو بن أم كلثوم .. ولا يُدرى أمِن محض المصادفة أن كانت نشأة اثنين من الثلاثة في بني جمح أم كان لهؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والغناء، وإنما المعروف عن القوم أنهم كانوا أصحاب الأزلام والإيسار في الجاهلية وأنهم كانوا من حزب عبد الدار حين شجر الخلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بني عبد مناف خلاف قديم .

واذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور في بغضه لعبادة الجاهلية واقباله على الإسلام فذلك هو اطلاعه بين القوم على أسـرار الأزلام والايسار وما يلزمها أحياناً من الغش والتلبيس ، وأن القوم فيهم مجافاة عن الرحمة والنزعة الروحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف — جد النبي عليه السلام — منذ القطيعة الاولى بين الاحزاب القرشية ، وخليقٌ بأمثال هؤلاء ألا يألفهم الضعفاء . .

ولم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء . فقيل انه كان عند عقيلة من عقائلهم ، وقيل انه كان عند أيتام لأبي جهل ، وقيل انه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده . واتفقت الأقوال على أن الصدّيق رضي الله عنه هو الذي استنقذه من أيديهم بعد ما عاينـه من تعذيبهم اياه لدخوله في الإسلام . فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل بسبع أواق وقيل بتسع أواق . وزعموا أن سيده أراد ان ينغص الصفقة

على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! فقال له الصديق : لو أبيتم إلا مائة لاشتريته .!! ويزعم بعض الرواة أن الصديق استبدله بغلام له جلد من عبيده ، وهي رواية يشك فيها كثيراً . لأن الصديق لم يكن ليُسلم المشركين رجلاً من أتباعه ليستنقذ به رجلاً غيره ، وأدنى من ذلك وأشبه بخلائق الصديق رضي الله عنه أنه اشتراه بأمر النبي عليه السلام ، وأنه عليه السلام عرض عليه الشركة فيه ليخفف عنه عبء نفقته ونفقة المستضعفين من أمثاله ، فقال له : لقد أعتقته يا رسول الله . وعمل بعد ذلك خازناً له ثم خازناً للنبي ومؤذناً للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر . فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنت ومساءة ، واشتدوا في ذلك حتى همّوا بقتل النبي عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكي بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها . فأشفق النبي الكريم على صحبه وأذن لهم في الهجرة قبله ، وكان بلال ممن هاجر الى المدينة على إيثار منه للبقاء في مكة . فلما وصل النبي عليه السلام وصاحبه الصديق الى المدينة كانت « أوبأ أرض الله من الحمى » ولكنها أرحم بهم من جيرة المشركين في مكة . ونزل الصديق وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فاصيبوا جميعاً بالحمى – ولعلها الملاريا كما

رجحنا في غير هذا الكتاب – فكان بلال اذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته يترنم بصوته الجهوري قائلاً :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردنْ يوماً مياه مجنّة
وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل

وهي مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوّقها بلال في العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقي عند تلك المواطن والمنابت قسوة في جاهليته وتعذيباً في اسلامه وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهي حبيبة اليه أثيرة لديه ، وإن لقي الحفاوة والسلامة في الهجرة منها الى غيرها .

وقد لزم بلال النبيّ والصدّيق بالمدينة ومكة وسائر المغازي والأسفار بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنائه حظُّ الأذان الأول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين في حضرة النبي حتى قُبض عليه السلام ، ومُيِّز بالتقدم عليهم لتقدمه في الاسلام ولجهارة صوته وحسن أدائه ، وإن كان تقدمه في الاسلام هو أرجح المزيتين التي استحق بها التفضيل والتكريم .

كان إذا فرغ من الأذان وراد أن يُعلْم النبي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حي على الصلاة ! حي على الفلاح! الصلاة يا رسول الله. فاذا خرج رسول الله فرآه بلال ابتدأ في الاقامة .

وقيل في خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدحض الشمس ويؤخر الاقامة قليلاً . أو ربما أخرها قليلا، ولكن لا يخرج في الأذان عن الوقت. وربما ترنم ببعض الشعر وهو صاعد للأذان رثاءً لحاله وطلباً للتوبة والرحمة من الله . ومن ذاك أنه سُمع وهو يقول:

ما لبلال ثكلته أمه وابتلّ من نضح دم جبينه

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بناء المصلّى أنه كان يحمل العنزة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العَنزَة إحدى عنزات ثلاث أهداها نجاشي الى النبي عليه السلام ، فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلاً من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالاً بحمل العنزة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها في العيدين وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقيل انه كان يمشي بها بين يدي الصدّيق في خلافته ثم جعل سعد القرظ يمشي بها بين يدي عمر وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العنزة التي احتفظ بها الولاة يُمشى بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آخى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فآخى بين بلال

وخالد أبي رويحة الخثعمي ، وقيل بل بينه وبين أبي عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب ، أو بين أبي عبيدة الجراح ، وهو على ما يظهر لبس في الاسماء ، والأول هو الارجح لبقاء الصلة بين بلال وأبي رويحة الى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم، فكان يقول له : يابلال! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله ، وكان يقول له : عش فقيراً يا بلال ومت مع الفقراء ، وربما عهد إليه في تفريق ما يفضل من المال عنده وقال له : أنظر حتى تريحني منه . فيرى بلال القدوة في سيده ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة .

وقد أُريَ النبي عليه السلام أنه سمع دف نعلي بلال بين يديه في الجنة، فسأله بعد الصلاة : يا بلال ! حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الاسلام منفعة ، فإني سمعت ليلةَ دفَّ نعليك بين يدي في الجنة .. فلم يذكر بلال زهده ولا جهاده ولا صبره على العذاب ولا أمانته وتسليمه ، بل قال : « ما عملت عملاً في الاسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي » .

فكان اصطفاء النبي هذا الصديق المؤمن الأمين اصطفاء المربي الكبير للرجل تثمر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل ،

ويُحب للطف محضره كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه . وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طويل صحبته بين الحرب والسلم والاقامة والسفر، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارساً يحميه كما يحمي الحراس الأمراء والسلاطين ، وإنما كان يستصحبه في إقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه . وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد وحيث لا يريد ، فاذا اشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع الى تظليله بثياب الوشي والنبي لا يسأله ذلك ، وإذا تهيأوا للقتال ضرب له قبة من أدم يرقب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه ، فلم يفرّقهما موقف ضنك ولا موقف خطر ، ولم ينقض يوم إلا جمعهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ، ما لم يكن في غيبة قصيرة لشأن من شؤون الدين الذي لم يكن له شان سواه .

ولما فُتحت مكة أمره النبي عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فاقامه والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه ، ودخل النبي الكعبة فكان في صحبته ثلاثة هم : عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد، ابن النبي بالتبني ، وبلال .

وما زال يصحب النبي مجاهداً حتى قبض عليه السلام ، فاقام الأذان بعد وفاته أياماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإباء ، لأنه

كان إذا قال في الاذان « أشهد أن محمـــداً رسول الله » بكى وبكى معه سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبي ويراه ثم هو بعدُ لا يصحبه ولا يراه ، وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة ، وآثر الجهاد على فرط حاجته الى الراحـة في عشرة الستين . واتفقت أرجـح الاقوال على أنه استعفى الصدّيق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى الشام مع المجاهدين . فأذن له بعد إلحاح منه ، واشترك في معارك لا نعلمها على التفصيل، ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن للخليفة الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدّى لمحاسبة خالد في مجلس الحكم بين يدي أبي عبيدة .

وأدركته الوفاة في نحو السبعين ـ لأنه كان ترب الصدّيق على أرجح الاقوال ـ وقيل انه مات في طاعون عمواس، وقيل سنة عشرين للهجرة أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لانه سيجمع بينه وبـــين النبي وصحبه كما كان يقول في ساعات الاحتضار ، فكانت زوجتـه تعول الى جانبه وتصيـح صيحة الوله ! واحزناه . فيجيبها في كل مرة وافرحـاه . غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضي الله عنه معروف يزار .

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجـــد

الذي اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال. بكى عمر وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت اللحى البيض واضطربت الأنفاس التي لا تضطرب في مقام الروع. ولو بدا لهم أنهم يستمعون الى صوت آدمي ينطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولا تولاهم ما تولاهم يومئذ من الوجد والرهبة، ولكنهم أنصتوا لوحي الغيب حين أصغوا اليه، وقام في أفئدتهم أنه صوت جدير بمحضر النبي عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونةً من الزمان. فهم إذن في عليّين أو قريب من عليين، وهم إذن على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبي عليه السلام في جواره، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الإلهي فترجف من الوجد وتنكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة في عالم الأرواح وآفاق السماء.

رحم الله بلالاً إنه كان داعي السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوتها. وقد رفعهم في ذلك اليوم الى الأفق الأعلى، إلى الحضرة التي ترتجف فيها الأجساد لأنها غريبة في ذلك الجوار.

●

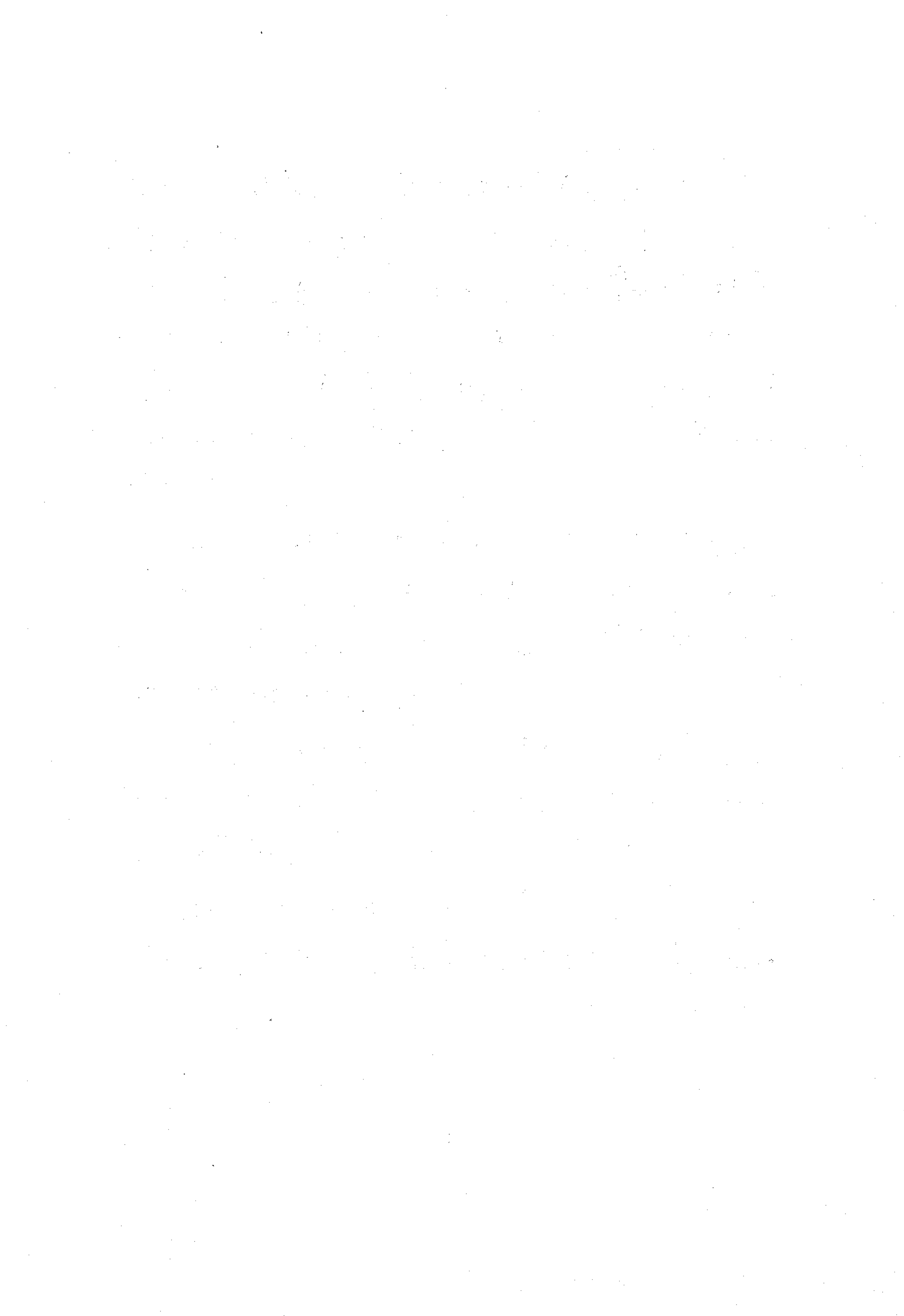
وحق للمسلمين في ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبي وصوت بلال حيث كان، فمن سيرة بلال الوجيزة نعلم أنه كان يأوي الى كفالة النبي في حياته البيتية كما كان يأوي إليه في حياته الدينية. وأن احداً من الصحابة لم يكن يذكّرهم بالنبي عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون إليه. وقد

شغل النبي بمعيشته في بيته كما شغل بعتقه ورزقه وتقويم دينـه ، ففي روايات مختلفة أنه تزوج بوصية منه عليه السلام ، وفي إحـــدى هذه الروايات « إن بني أبي البكير جاءوا إلى رسـول الله ﷺ فقالوا : زوّج أختنا فلاناً . فقال لهم : أين انتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا يا رسول الله أنكح أختنا فلاناً، فقال لهم: أين انتم عن بلال؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم : اين انتم عن بـــلال ؟ اين انتم عن رجل من أهل الجنـــة . فانكحوه » .

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب ، فقد جاء في رواية قتادة أنه تزوج أعرابية من بني زهرة ، وجاء في رواية أخرى ان له زوجة تدعى هنداً الخولانية ، وهي من خولان اليمن لا من خولان الشام ، لأنها كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

ذكره ابن اسحاق فيمن حضر بـدراً فقال : وبـلال مولى أبي بكر . مولـّد من مولدي بني جمح اشتراه أبوبكر من أمية بن خلف، وهو بلال ابن رباح ، لا عقب له .

نعم ولكنه أعقب الميراث الذي يتصل بالأذان في كل مـــكان .. فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال.



اِسْلامُ بِلال



كل إيمان فهو شيء يتجاوز الفرد الواحـد ولا ينحصر في مصلحتـه العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذي يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره في زمنه ، وليس بإيمان ذلك الذي يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يضحي بالمصلحة في سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها .

وقد يضحي الانسان أحياناً بالإيمان في سبيل المصلحة العاجـــلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا ينفي أن الايمـان شيء أكبر من المصلحة عاجلهـا وآجلها ، وإنما يدل في هذه الحالة على أن ذلك الانسـان يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان .

فالإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفي أن يضحي الناس بمصالحهم في سبيل إيمانهم ــ ولو في بعض الأحيان ــ لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف .

لأننا نفهم أن ينسى الرجل إيمانه في سبيل مصلحته فنقول ان المصلحة عزيزة عليه وإن الايمان ضعيف في نفسه .

ولكننا لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته في سبيل إيمانه إلا على وجه واحد ، وهو أن الايمان والمصلحة معدنان مختلفـان ، وأن المصلحة عزّت أو هانت هي شيء غير الايمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل في حساب الرجـــل فينسى من أجلها مصالحه الدنيوية · فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمـــان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد في زماننا هذا أناس ـ كأتبـــاع كارل ماركس ـ يؤمنون بالمادة وينكرون كل شيء غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحيـك بضمير الانسـان إن هي إلا صورة من حياته المادية التي لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للنفي ويجازف بالحيـاة ويفقدها في في سبيل إيمانه بمعتقده وانكاره لمعتقد الآخرين.. وليس بالمعقول أن يفقد الانسان الحياة لأنه يطمح إلى الطعام الهنيء والعيش الرغيـــد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتي بعده من ينعم بالطعام الهنيء والعيش الرغيد وهو تحت التراب . فاذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسالة عنده ليست مسالة حساب وموازنة أو مسالة مصلحة كبيرة بازاء مصلحة

صغيرة ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه بازاء قوة تمضي به حيث شاءت ولا ولا يمضي بها حيث شاء ، أو لأنه في حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الأرقام بازاء الارقام .

وقد شوهدت في الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لا تحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي خلو من إيمان بحق وثورة على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي قائمة على منفعة تخص صاحبها ولا تتجاوزه الى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين – فهي إذن مسالة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد .

فالايمان ابداً هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة في سبيل العقيدة قبل الايمان بها ، لان المصلحة موجودة والايمان غير موجود . ولكنهما متى وجدتا معاً فهما شيئان وليسا بشيء واحد . ويظلان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا في الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضي الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التي تقرر هذه الحقيقة في الأذهان .

وقد عنينا بأن نبين مزايا الاسلام في معاملة الارقاء . ولكننا عنينا مع

ذلك بان نبين حقيقة أخرى لا بد من تبيينها في هذا المقـــام ، وهي ان المعاملة نفسها ليست هي سبب دخول الارقاء في الاسلام، وإنما هو «الحق» والشعور بجمال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل، ولو لقي الارقاء في سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والإماء .

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبوبكر وعلي وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الاسلام :أما أبو بكر فمنعه الله بقوته وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم انسان إلا وقد واتاهم على مـا أرادوا من الكفر وسب النبي عليه السلام . إلا بلالاً فانه هانت عليه نفســـه في الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكـة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء في طبقات ابن سعد بأسناده ما فحواه : إنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذي يعذبه أمية بن خلف ..

وكانوا اذا اشتدوا عليه في العذاب قال : أحد . أحد . فيقولون له قل كما نقول . فيقول : ان لساني لا يحسنه . وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات

والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد . فأتى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشتراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء في الطبقات أن أبا جهل جاءهم بالعشي فجعل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها فهي أول شهيد في الاسلام وهانت على بلال نفسه في الله حتى ملوه فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبَي مكة فلم يزدهم على كلمته التي كان يرددها ولا يمل من تردادها : أحد . أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية في وقدة الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم الى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد » .

●

هذه صورة بلال رضي الله عنه في مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود – فضلاً عن تحقيق الوعود – في معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الاسلام في معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين .

وإن آخر ظن يخطر على بال المرء إذ يرى بلالاً على تلك الصورة

المؤلمة أنه يرى أمامه رجلاً وازن بين سوء المعاملة في الجاهلية وحسن المعاملة في الاسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد من أجلها.

لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن سوء معاملتهم إياه قبل الاسلام شيئاً الى جانب ذلك العذاب الأليم الذي كان يسامه بعد اسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لانتظر حتى يسلم سادته فيطمع عندهم في تلك المعاملة الحسنة ، أو لانتظر حتى يمتنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالاسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل الى دخول الدين الجديد بين نفر من المغلوبين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

وأعجب شيء أن يخطر للعقل أن الاسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فآمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحميهم الأنفة ان يدخلوه ، وقد دخله الاحرار كما دخله العبيد في مبدأ التبشير بالدين الجديد .

فإن كانت لبلال وصهيب وأمثالهما مصلحة في الايمان بذلك الدين لأنه يسوي بينهم وبين أبي ابكر وحمزة وعثمان وعلي والفاروق فما مصلحة هؤلاء في النزول بأقدارهم الى حيث يتساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحمية التي تشمخ برؤوسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم في العزة والجاه !

فعن الحق وسكينته في النفوس فلنبحث في تعليل الايمـــان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة انسانية فوق مصالح الأفراد ، وانما يوجد الايمان حين يوجد للنفس حقٌ محبوب وباطل مكروه ، ولو ضاعت في سبيل حب الحق و كراهة الباطل كل مصلحة عاجلة أو آجلة او ضاعت الحياة بغير امل في الجزاء .

فلا العبيد آمنوا لأن الاسلام يسوي بينهم وبين الاحرار ولا الاحرار آمنوا لان الاسلام يسوي بينهم وبين العبيد . لان قصارى هذه التسوية انها مصلحة لفريق من الناس ، وما زال الايمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين . فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصةٌ قليلة من حياته ، أما الايمان فهو ابداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل في سبيله المصلحة والحياة.

أو لم يوجد في الوثنية وفي بعض الأديان الكتابية أناسٌ يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون ان الأرباب تفرق بين اقدارهم وأقدار سادتهم في الحياة وبعد الممات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرهما من أربـاب الجاهلية وكان لا يرجو نصفةً منها ولا تسوية بينه وبين ساداته المتجبرين عليـــه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالأله «الأحد»

هو الذي سوّأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلي الأعلى التي تجري على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى من ألم العذاب بين يدي سادته القساة .

فكانت الوحدانية هي الكلمة الواحدة التي لخص بها فضل الدين الجديد على الدين المهجور . وقد ألهم هذا التلخيص الصادق الوجيز إلهام الايمان الذي يهدي العقل إلى موقع الهدى من أوجز طريق . فلو انه كان يقول « الرحيم » في موضع « الاحد » لجاز أن يقال ان في الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة ، أو لجاز ان يقال إن الرحمة بدرت إليه في تلك اللحظة لانه يشتكي القسوة والعذاب . ولكنه لما ردد كلمة الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدي إلى الصفة الوحيدة التي لا يدعيها المدعون لارباب الجاهلية ، كما هدي الى الصفة الوحيدة التي تجعل الايمان إيماناً بالحق ولا تجعله انتظاراً لرحمة او غفران او جزاء .

ولا نريد ان نقول ان الايمان والمصلحة لا يجتمعان ، ولا ان نقول ان المؤمن لا تخطر له المصلحة بحال او انها لا شأن لها البتة في تحول العقائد والعبادات. فإن المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الاذهان الى الاصغاء الذي يتبعه الارتياح والتصديق ، وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة الوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير العميم .

ولكن الذي نقوله ان المصلحة غير الايمان وانهما قد يفترقان كما

يتّفقان، ولو كانت المصلحة هي الايمان لوجدتْ المصلحة ولم تكن هنالك حاجة الى وجود ايمان على الاطلاق .. كفى ان يسعى الانسان الى مصلحته دون ان يجعل الايمان سبيلاً اليها ، وكفى ان يلتزم المصلحة ولا يتعداها الى الذي يحبب اليه الموت . فاما وقد وجد الايمان في كل زمن من الازمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لان يقال ان فرداً من الافراد قد آمن لأن له مصلحة في ايمانه . فإنه يضم الى المصلحة شيئاً آخر اذن حين يدعمها بالايمان .

كلا . ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة في قيظ الصحراء صورة الرجل الذي طلب الخلاص من قسوة السادة ، لان الخلاص هو كل ما يعنيه .

وليست صورته وهو يكرر « الاحد . الاحد » بصورة الرجل الذي دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين ، ولا يعرف للدين الجديد فضلاً الا الرحمة بالعبيد في الارض او في السماء .

لقد كادوا يقتلونه وهو لا يجيبهم الى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت، ولعلهم لم يبقوا عليه الا لشحهم بثمنه ان يضيع عليهم ان قتلوه ، ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة ، ولم يقتل بلالاً ولا عماراً ولا صهيباً لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون .. ولكنهم لا شك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يئسوا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صابىء عن دين الجاهلية ، فلم يكن إسلامه سبيل

رفق ولا تخفيف من عناء ، بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحـــة والحياة .

وأي عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعاً قبلوا ما سامهم المشركون أن ينبسوا به ـ ومنهم عمار بن ياسر ـ لنعلم أنه كان عـذاباً يفوق طاقة الانسان .

إن عماراً لم يكن يهاب الموت في هرمه ، ولكنه ضاق ـ في صباه ـ بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع علي رضي الله عنه وقد أناف على التسعين ، وقد شهد المغازي في عهد النبي وعهود الخلفاء ، وكان عليه السـلام يقول : « إن عماراً مليء ايماناً الى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين في الهداية فيوصيهم أن يقتدوا بابي بكر وعمر وأن يهتدوا بهدي عمار . وهو ايضاً لم يجذبه الى الايمان طلب راحة وطمع في حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية وينضوي الى جانب علي ليموت تحت لوائه في صفين ، وما كان عليٌ لو انتصر بمغدقٍ عليه مالاً ولا بمطمعه في عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضي الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنـه قد وهب عبقرية الايمان . لان ايمانه كان ذلك الايمان الخالص الذي يوصف بأنـه

الإيمان حباً بالإيمان لا حباً بما وراءه من رضى أو جزاء · وآيــة المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد فيقبل على الموت كراهة للبقاء في دنيا لا تواتيــه على اعتقاده . وليس يقبل على الموت طلباً للجنة كما يقال · فإن من المؤمنين بالعقائــد المادية كما أسلفنا من يموت في سبيلها ولا أمل له في حياة بعد الحياة ، وان الجنة لحبيبة الى كل انسان يصدق بها · فليس الفرق بين رجل يجــاهد ورجل لا يجاهد ان هذا يكره الجنة التي يحبها ذاك ، وانما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو هبة العقيدة . وهي قد كانت في عمار على أقوى ما تكون في انسان .

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسعى الى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبي الى ان نيف على التسعين ومات تحت لواء علي بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العـذاب الاليم الذي صبر عليه « بلال » وظل صابراً عليه بغير أمل في الخلاص القريب ·

وكل طمع في حسن المعاملة يزول ويبطل في مثل ذلك العــذاب الذي ضاقت به طاقة عمار ·

نعم يزول ويبطل لولا ايمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ، ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء ·

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار الى دخول الدين الجديد، ولكن الذي يفهم من ذلك ــ أو ينبغي ان يفهم منه ــ ان المصلحة لم تكن عقبة

بين العبيد وبين الإصغاء الى الدعوة الجديـــدة ، وأن الاحرار كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التامل في صدقها وبظلان ما هم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقـاً عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التي أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هي المراد بالعقيدة لما وجدت العقيدة على الاطلاق، ولوجدت المصالح كما هي موجودة في الدنيا بغير اعتقاد على الاطلاق في شيء من الأشياء .

لقد كانت في نفس بلال حاجة الى الولاء والاخلاص ، فصدق النبي الكريم لأنه كان أهلاً لولائه وإخلاصه ، وكان خليقاً أن يطمئن اليه ويشعر بالسكينة في الاصغاء الى قوله والاقتداء بعمله .

وسمع رجلا ينادي بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو في الذؤابة العليا من بني هاشم أو في الذؤابة العليـــا من قبائل العرب جمعاء ، فكان هـــذا سبب التصديق والايمان ، وكانت دعوة الرجل الحسيب النسيب التي لا مصلحة له فيها هي البرهان الاول على صـــدق العقيدة ، ولولا انعدام المصلحة في دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب لما أسرع بلال الى تصديقه والجنوح اليه .

فأما وقد جنح اليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنهـــا أصبحت مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمـان ، ولم تكن لبلال

راحة بغير ذلك الإيمان بعد ان جنح اليه ومزجه بقلبه وضميره . فصبر في أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقي على دينهم كما كان .. وقد صبر على بلاء الجسد لانه مستريح القلب والضمير :

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بـــلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما تصبو اليه الاحلام ويتعلق به الرجاء .

فبلغ من تعظيمه انه كان نداً لاعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضي الله عنه يقول: « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق ان أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم . وغضب ابو سفيان وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الانصاف فقال لهم : أيهـــا القوم ! اني والله أرى الذي في وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دُعي القوم – إلى الاسلام – ودعيتم فاسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » .

***

جمال هذا الادب هو الذي يهون في سبيله الموت وســـوء المعاملة

والعذاب الاليم ، وهو الذي يوحي العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبي فاحبه الاحرار وأصغوا اليه وصدقوه.. ولقد تمت أداة العقيدة حين تم الحب والاصغاء والتصديق.
فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء إلا قضية يحبونها وداع يصدقونه . وما يكونون يوماً أحوج إلى الايمان منهم يوم تعز عليهم القضية التي تحَب والداعي الذي يصدَّق .
فإذا بلغت بهم الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من إحدى غايات ثلاث : فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان يوجد حيث كان .

●

صِفَاتُ بِلال

كان بلال رجلا على سواء الفطرة .

وآية ذلك أنه كان كما ينبغي أن يكون كل رجل قوي الطبع من بني جلدته وفي مثل نشأته ، يمر بالحوادث التي مر بها ويمارس التجارب التي مارسها .

وقد تقدم في صفات الموالي الأفريقيين أنهم ينقمون الإساءة على المسيء ويحفظون الحسنة لمن يحسن اليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه .

وهكذا كان بلال رضي الله عنه في مجمل صفاته : كان متصفاً بأجمل صفات بني جلدته : وهي الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتديء في قسوته ولا بالمكابر في عناده . إنما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فضل الأصرار على الإيمان بالصواب.

قال ابن الرومي :

إذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارع
من البذر فيها فهي ناهيك من أرض

ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها
بل العيب أن تدّان دَيناً فلا تقضي

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون أثر الاساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضى حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضي حيث طلبوه ، فإذا بهم ينحلونه صفاتهم ويعيبونه بمساءتهم ، وينكرون صحبته كما ينكر صحبتهم . ومن ذاك أن مشترياً أراد ان يساوم فيه سيدته « قبل أن يفوتها خيره وتحرم ثمرته » فقالت له متعجبة : وما تصنع به ؟ إنه خبيث .. وإنه . وإنه ! الى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة .

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالاً على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أو كنود ، وإنما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .

وقد كان اكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان إيمانه القوي بالله ، واخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التي

ترتقي إليهـا محاسن بني جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيـع ، سواء كان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع أو ولاء معجب بمن يستحق الإعجاب .

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا والآخرة في طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجو في دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوي إلى جواره وينعم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة في قرين حياتهـا فتصيح : واحزناه .

وكان هو يجيبها فيسكرات الموت : بل وافرحتاه ! غداً نلقى الأحبه ، غداً نلقى الأحبه ، محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وما كان له من علاقة تربطه بهـذا الكون العظيم إلا وهي في جانب منها علاقةٌ بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه .

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه في معظم حالاتها وكانت لا تخليه من مناكفة في بعض حالاتها كما يتفق أحياناً في كل عشرة بين زوجين وفي كل صلة بين إنسانين ، فكان يقبل منها كل مـا يسر ويسوء إلا أن تمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده : وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . فاستعظمت يوماً ما يحدثها به عن رسول الله فاذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل محنقاً مقطباً حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره فيشفق

أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها في صدقه. ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة: « ما حدثك عني بلال فقد صدق. بلال لا يكذب. فلا تغضبي بلالا ».

فاذا المولى الأمين هانىء قرير.

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم ولا يشكون في روايته ونقله. ويروون عنه رواية اليقين في شؤون الصلاة والصيام.

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار إلى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد السحور والإفطار فيقولون: إنا لنرى الفجر قد طلع، أو يقولون: ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد، فاذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال، وليس للشك في ضوء النهار مكان.

وقد لزمت بلالاً عادة الصدق في كل كلام يبلّغه المسلمين عن النبي أو يبلغه إليهم في شان من عامة الشؤون وخاصتها، فلما رجاه أخوه في الاسلام ـ أبو رويحة ـ أن يسفر له في زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال: « أنا بلال بن رباح وهذا أخي أبو رويحة. وهو امرؤ سوءٍ في الخلق والدين، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا ... »

فزوجوه وكان حسبهم عنده أن يقبـــل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

وقد كان من ولائه لأبي رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الفاروق دواوين الصحابة ساله: إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبي رويحة « لا أفارقه أبـداً ، للأخوة التي كان رسول الله عقد بينه وبيني » .

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفيـاء · فكانت أخوّة العمر عنـده من فضل الولاء لرسول الله : وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيـه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه ·

●

وقد عرف له النبي عليه السلام هـذه الخصال التي تتجمع كلها في صفة الأمانة ـ وهو هو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس ـ فأقامه في موضع الثقة منه وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ،واستصحبه في غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العَنَزة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحدٌ من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذي يقيم معه الصلاة وهـذا الأمين الذي يحفظ له المال والطعام، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير في رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التي قلما كان يركبهـــا

سواه عليه السلام .

ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال .

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن في ثراه . فكان بلال هو الذي ذكر واجب الحنان المكلوم في ذلك الموقف الأليم ، فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء .

●

وعلى هذا الحنان في طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضميرٌ يعرف الاصرار على الرأي كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة .

وربما كان في هذا الإصرار شيء من عناد بني جلدته أبناء الحبشة المولّدين وأبناء السلالة السوداء . إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمد ويفيد وثانيهما يذَم ويضير .

فالعناد في أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة ، وفي لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى ، ولم نعرف من العناد في تاريخ بلال إلا أجمل اللونين وأشبههما بقوة الأسر وخلائق الأمناء .

من ذلك عناده للمشركين حين سلموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب أبيه كما تقدم في وصف إسلامه ، ومنه إصراره على ترك الأذان لغيره حين وقر في نفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص في الوفاء، وربما كان منه إصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام حين

سأله الخليفة البقاء . فقـال له في رواية مشهورة : « إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني ، وإن كنت أعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب الى الله عزّ وجل » وأبى ألا أن يمضي حيث أراد .

ولا شك أن الرحمة بالاعداء أمر لا ينتظر من رجل طال عهـده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعـذاب اللؤماء ، فان رحمة رجل كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه . أما الخلق الذي يستغربُ منه حقاً فهو رحمة في ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط في الإساءة إليه .

ولهذا لا نستغرب ما روي عن بلال بعد وقعة خيبر وما روي عنه بعد وقعة بدر مع المشركين . ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه •

فلما افتتـح النبي حصن القموص بخيبر جيء له بصفيـة بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها . فأرسلهما عليه السلام مع بلال إلى رحله • فمر بهما بلال على القتلى من قومهما فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً ولطمت وجهها • وعلم النبي بما صنع فقال له عاتباً : أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى ؟ فكان عذر بلال الذي اعتذر به في جوابه : يارسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك • وأحببت أن ترى مصارع قومها !

أما في وقعة بدر فقد كان عـذره أوضح وأسلم من عـذره في وقعة خيـبر •

فقد رأى أميــة بن خلف وابنه بعد الوقعة في صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى،وقد كانا أشد الناس إيذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم،وكان بلال أوفر المسلمين نصيباً من ذلك الايذاء اللئيم. فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله : رأس الكفر أمية ابن خلف . لا نجوت إن نجا . ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح : لا نجوت إن نجـا . لا نجوت إن نجا . حتى اجتمع حولهم خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعاً فاذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها. قال عبد الرحمن بن عوف :انــج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغني عنك شيئاً . ولكن المقاتلين هبروهما بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار.

وقد يزيد في وضوح العذر لبلال من هذه النقمة أن أمية هذا كان من أحق الناس بالبغض وقلة الرحمة . لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يرهب القتـال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التي أقـدم عليها شجعان المشركين . فما هو إلا أن سمع بنذير النبي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذي توعده بالقتل فيه ، وصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين في غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد،ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بمجمرة يبخره بها ، وقال له : تجمر يا هذا فانما أنت من النساء .

ولما نشبت المعركة ببدر كان هـــو وابنه في طليعة الناكصين عن

القتال ، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع في ميدان ·
فانما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن في عقر داره ، ولم يكن من لدد العقيدة التي يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وَكِلٍ ولا هيّاب. وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم في ساعة القصاص ، وكفى لبلال عذراً في هيجة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبي إياه بالقتل وأن أبا بكر هناه بعد قتله فقال:

هنيئاً زادك الرحمن خيراً لقد أدركت ثارك يا بلال

وفي غير هذه الهيجة التي تدرك أحلم الناس في موطن النقمة وحومة الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطري التي تبدر منه القسوة وهو لا يعنيها ، وكان في جملة أحواله مثلاً للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع ، فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه في صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره ، فيطرق ويقول : إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً . وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية ، فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديث النبي عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما يرويه ، ولم يزد في إخباره عن النبي على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعد الإفطار والصيام .

●

وكان بلال ابن قومه في خلقين آخرين يعرفان في بعضهم قدماء أو

محدثين ، وهما فراسة النظر وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد .

أرسله النبي عليه السلام مع رعية السحيمي ليرد له ابنه الذي أسره المسلمون ، فلم يفته وهو يقص نبأه على النبي أن يقول : والله ما رأيت واحداً منهما مستعبراً إلى صاحبه ! فقال النبي : ذاك جفاء الأعراب .

ووكل إليه النبي وهو مقبل إلى وادي القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح ــ وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس . ثم صلى عليه السلام بمن معه وأن أحدهم ليسلت العرق من جبينه من حر ذلك اليوم ، فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها . ثم التفت الى بلال فهتف به : مه يا بلال . فبادر بلال معتذراً وهو يقول : بأبي وأمي . قبض نفسي الذي قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام .

وإنما تدل هذه السهوة ــ وإن لم تتكرر ــ على إيثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضرة على النبي وصحبه ، وهو حذر كان ولا شك في نفس بلال شديداً ،بل أشد من الشديد .

•

وآخر ما يروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت خالد وأبو عبيدة يساله عن تلك الهبات أهي من ماله أم من مال المسلمين ؟ وهو معرض لا يجيب .فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه . وساله : ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ فعند ذلك أجاب

خالد : بل من مالي . فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

ذلك آخر ما روي من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد، وهو الطاعة الجريئة التي لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا في سبيل طاعة أكبر منها وأوجب. فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذي يطاع وللأمر الذي تجب له الطاعة ، وهي طاعة القوي الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة . فكان سيد المطيعين ، ولا يشرّف الانسان إن لم يكن سيد الآمرين إلا أن يكون سيد المطيعين .

الأَذَان



أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوةٌ تكون من معدن الصلاة وتنم على صوت من أصوات الغيب المحجّب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجسد الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها، وكأنما يبـــدأ الإنسان في الصلاة من ساعة مسراها إلى سمعه ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليها .

دعوة تلتقي فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية في كل موعـــد من مواعد الصلاة ، كأنها نبأ جديد .

الله أكبر . الله اكبر .

تلك هي دعوة الأذان التي يدعو بها المسلمون إلى الصلاة ، وتلك هي الدعوة الحية التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا تومىء إليها ، وتلـــك هي الحقيقة البسيطة غاية البساطة، العجيبة غاية العجب ، لأنها أغنى الحقائق عن التكرار في الابد الأبيد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغـل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم في صلاة منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يذكر بها عظمة الله وهي لب لباب الصلوات •

وتنفرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها الأسماع والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعي الذي يهتف بها إن « الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لحة أو لحتين ، وتقول كلها إن الحركة صلاة خفية بيد محرك الأشياء، وإن الصلاة خير من النوم .

وإذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها خفايا الليل فهو وداع متجاوب الأصداء ، كأنه ترجمان تهتف به الأحياء أو تهمس به في جنح المساء ، ، وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين إلى سلام الليل وظلال الأسر والأحلام .

وانها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار .

تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقظ الأجسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، فاذا هي أشبه صياح بسكينة ، وأقرب ضجيج إلى الخروج بالانسان من ضجيج الشواغل والشهوات .

حيّ على الصلاة !

حي على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح ، لأن كل فلاح بغير الايمان هو الخسار كل الخسار .

●

وما يعرف وقع الأذان من شيء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة ومعزل عن العادة والسنّة المتبعة ، او كما يعرف من وقعه في بدائه الأطفال وبدائه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الاسلام .

ففي الطفولة نسمع الأذان ولا نفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء ، ونؤخذ به ونحن لا ندري بم نؤخذ، ونود لو نساجله ونصعد إليه ونستجيب دعاءه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم كلمة الأمر ونكاد نفهم كلمة الله ، ولكننا نحـــار في البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل ... ثم نقضي السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة الطفولة بأننا ما نزال حائرين ، وإن سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان .

وفي الذكريات أصداء تكمن في النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذي سرى إليه .

إن أبقى هذه الأصداء في كل ذاكرة لهي صيحة الأذان الأولى التي تنبهت اليها آذان الطفولة لأول مرة ، وما تزال تبتعد في وادي الذاكرة ثم

تنثني اليه من بعض ثنياتهـا القريبة ، فاذا المرء من طفولته البـاكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب .

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الاسلام فما يلفتهم من شيء من شعائر العبادة الاسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العـــالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المحدثين وعاداتهم » إن أصوات الأذان أخاذة جداً ولا سيما في هدأة الليل.

يقول جيرار دي نرفال في كتابه سياحـة بالمشرق : « إنني لأول مرة سمعت فيهـا صوت المؤذن الرخيم النـاصع خامرني شعور من الشجو لا يوصف . وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟ فقال : إنه ينادي أن لا إله إلا الله. قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟ فقال : إنه يدعو النيام قائلاً : يا من ينام توكل على الحي الذي لا ينام ... »

وأنشأ الكاتب المتصوف « لافكاديو هيرن LaFcadio Hearn » رسالة وجيزة عن المؤذن الأول ــ أي بلال بن رباح ستاتي ترجمتها بعـــد هذا الفصل فقـــال : « إن السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المنائر ، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث بـه دعاء المسلمين إلى الصلاة ... وهو لا شك يستوعب في قلبه ــ إذا كان قدهيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة ــ كلّ كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات

المؤذن الرنانة ، حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح . يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غيـــاب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد، ثم يسمعه آخر الأمر حـين تومض من فوقـــه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول . ولعله يسمع في المرة الاخيرة عنـد نهاية التنغيم كلمـــات مقنّعة بالأسرار جديـدة على أذنيه ، فإذا ســـأل عنها ترجمانه كما فعل جيراردي نرفال أجـابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام .. عظات جليـــلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونهـا في المشرق على بعض الحجـارة الكريمة ومنهـــا لا « لا تأخذه سِنة ولا نوم » .. فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه ان المؤذن الأول ـ أول من رتل الدعاء الى الصلاة ـ كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الإسلام لهذه الدعوة ، بلال بن رباح، صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحيـــة من دمشق حتى هذا اليوم » .

*

وقد لمسنا نحن أثر الأذان البـــالغ في روع كثير من السائحين والسائحات الذين ينزلون ببلدتنا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بهـــا في الطريق من السودان واليه ·

فانهم كانوا يصلون الى أسوان وقد سمعوا الأذان مرات في القـاهرة والاسكندريـة وربما سمعوه في غيرهما من البلدان الاسلاميـة ولكنه كان يفاجئهم بجدة لا تبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار ــ ولا سيما في أيام الجمعة . وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجـامع الأكبر بالمدينـة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية في أذانه ، فكان يخيل الينا وهم يصغون اليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب يطرق الاسماع في وقت رتيب ، أو يترقبون طائراً من طوائر الهجرة التي تاتي في الأوان ولكن كما ياتي كل شيء غريب .

وكان من عادات المؤذنين التي لبثوا يعيدونهـا في شهر رمضـان الى عهد قريب ان يدقوا طبول السحور على المنائر العالية في الهزيع الأخير من الليل . فشكا بعض النازلين بالفنـادق القريبة من المنـارة وترددوا في تبليغ شكواهم الى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبـول شعـيرة من شعائر الإسلام ، فلما سأل عنها بعضُ مثقفيهم وقيل لهم إنهـــا عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا : إننا لا نشكو من الأذان لأنه لا يقلقنا ولا يزال يسري إلينا في ساعة الفجر كما يسري الحلم الجميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التي تـــدق فوق

رؤوسنا، وكنا نحتملها لو علمنا أنها شعيرة لا تبديل لها. ولكنا علمنا أنها تبدل في كل بلد إسلامي على حسب عاداته ، وان المدن الكبرى تستبدل بها طبولاً صغيرة تدق على الأبواب : فاسمحوا لنا ان نهدي إلى البلد بعض هذه الطبول .

وكانت هذه الطبول مما يباع في كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة. لأنها كانت تستخدم في عهد الدراويش بالسودان ، إما لجمع الجند او لتنبيه الغافلين أو للتوقيع والتنغيم ، وكانت ملابس الدراويش واسلحتهم وأدوات معيشتهم مما يبحث عنه السائحون في أسواق البلدة ، فتبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين ، فيقلقهم ويشوه عندهم جمال الأذان الخفيف على اسماع النيام .

*

وقد كانت هذه الطبول وشيكة في بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان في دعوة المسلمين الى الصلاة .

إذ لم يكن الأذان كما نسمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الاسلام في مكة والمدينة ، وإنما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون الى الصلاة الجامعة بالنداء الذي يُسمع من قريب ، فلما صرفت القبلةُ إلى الكعبة فكر المسلمون في دعاء الى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد .

ومن جملة الروايات التي جاءت في طبقات ابن سعد وغيرها يُفهم أنهم كانوا قبل أن يؤثر بالأذان ينادي منادي النبي عليه السلام : الصلاة جامعة ! فيجتمع الناس .. فلما صرفت القبلة الى الكعبة تذاكرا المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الناقوس وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القرى، ثم تفرقوا على غير رأي ومنهم عبدالله بن زيد الخزرجي .. فلما دخل على أهله فقالوا : ألا نعشيك ؟ قال لا أذوق طعاماً . فاني قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة ، ونام فرأى ان رجلاً مر وعليه ثوبان اخصران وفي يده ناقوس . فسأله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد ان ابتاعه لكي اضرب به للصلاة لجماعة الناس . فأجابه الرجل : بل احدثك بخير لكم من ذلك . تقول : الله أكبر . أشهد ان لا إله إلا الله . اشهد ان محمداً رسول الله . حي على الصلاة . حي على الفلاح . الله اكبر . الله اكبر . لا اله الا الله . ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدة ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبدالله بن زيد من منامه ذهب الى النبي عليه السلام فقص عليه ما رأى فقال له : قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك . وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبي مناماً يشبه ذلك المنام . وجرى الأمر في الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن ، وزاد بلال في أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبي عليه السلام ، وبقي النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يُدعون اليها ، وإن كان في غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الاسلامية جمعاء ... إلا ان الشيعة يضيفون اليه ، « حي على خير العمل » مع حي على الصـــلاة وحي على الفلاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلاً من أربع مرات .

ولا اختلاف كذلك في جواز التلحين والترجيع في الأذان ما لم يخل بنطق الكلمات ومخارج الحروف . إلا ان الحنـابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترجيعات .

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحـــد أذانٌ قبله ولم يسبقه الى ذلك سابق في تاريخ الاسلام . وهو شرف عظيم ، لأن محمداً بن عبدالله كان إمام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح .

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بـلالاً كان محبّب الصوت الى اسماع المسلمين ، وانهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي فيزيدهم هـــذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع .

على أننا نقرأ في أنباء فتح مكة ان رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة ؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعـــلو ظهر البيت الذي لم يصعد إليه أحد في الجاهلية . فهالهم ان يروا « عبداً » يصعد اليـه ويجهر بذلك النداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام : ألا ترى هذا العبد أين صعد ؟ فلجأ الرجل الى حكمة المضطر وقال : دعه : فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وكان الحارث بن هشام وابو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالاً ان يصعد الى ظهر الكعبة فيقيم الأذان . فقال عتّاب : لقد أكرم الله أسيداً ان لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه ، وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم انه محق لاتبعته ، وانكر ابو سفيان ما سمع او قيل في بعض الروايات انه جمجم قائلا : لا أقول شيئاً ، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا » .

وقبل ان نحيل هذا الإنكار الى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي إن نذكر ان ذلك الوصف من المشركين كانوا خلقاء ان ينكروا أول أذان يرتفع في سماء مكة ولو ترنمت به الملائكة وتجاوبت به سواجع الأطيار ، وانهم سمعوه زعيقاً و « نهيقاً » كما قالوا لأنهم سمعوا شيئاً لا يطيقونه ولا يستريحون اليه ، وكانت بهم عنجهية السادة في النظر الى العبيد ، وكان لبلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته مع النبي عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول الى الخشوع ثم الى ذكرى النبي الحبيب ، ورددنا كره المشركين إياه الى النفرة ثم الى العنجهية والعداء — فقد بقي شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة

الصوت وابتعاد مداه في أجواز الفضاء، ولاحاجة بنا الى العناء في الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول ان اختيار النبي اياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات - هو الشهادة لصوت المؤذن الاول بالسلامة من النفرة والنشوز المعيب ، فما عهد محمد عليه السلام خاصة الا أنه كان يحمد المنظر الحسن ، وكان ينكر كل نكير ويستريح الى كل جميل .



المُؤَذِّنُ الأوّل



كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوربية في أثناء الكتابة على تاريخ الاسلام. ولكن الذي كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا في السياسة العامة ـ كبلال بن رباح ـ جدّ قليل ، وبين هذا القليل الذي كتب عن بلال خاصة فصلٌ في اللغة الانجليزية للأديب القصصي لفكاديو هيرن Lafcadie Hearn الذي عمل حيناً في الصحافة الأمريكية وقضى زماناً في جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبنى فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد ان قضى حياته الأدبية كلها هائماً بنفحات الشرق الروحية سواء هبت عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان.

ولا شك أن ترجمة هذا الفصل الى العربية ترده الى اللغة التي هي أحق به وأولى. وتعد مناسبةُ نقله الى العربية سانحةً كل السنوح في صدد الترجمة لبلال رضي الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه. وهو عدا

ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الانساني والروح الشعرية والفكاهة الأدبية، ويضيف كثيراً الى علمنا بأثر الأذان الإسلامي في نفوس الأدباء الغربيين، ولا سيما الادباء من طراز هيرن الذين اظمأتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم الى الري الروحاني من ينابيع أخرى غير ينابيع امريكا واوربا .

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الاول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold التي يقول فيها مخاطباً العزة الإلهية :

« لو أن عابديك اليوم على الارض طاف بهم طائف من الفناء فجأة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير في سكينة السماء ـ لما خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الارض وفي أغوار الماء . نعم ... ولو ذهبت هذه وذهبت الارض معها لبقيت لك آيات في أعالي السماء أعظم وأسمى . اذ كل شارقة فوقنا من تلك الشموس التي تشتعل الى مطلع النهار وتلك الكواكب التي يعود بها الليل كل مساء ـ هي يا رب « دراويشك » التي تدور في حلقة الذكر حول عرشك الوضّاء » .

ثم قال هيرن : « ان السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من احدى المنائر على المساجد الجامعة ـ قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين الى الصلاة ، وهو لا شك يستوعب في قلبه ـ اذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة ـ كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة حيثما أرسل الفجر ضياءه

المورّد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وانه ليسمع هذا الصوت أربع مرات اخرى قبل ان يعود الى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الالوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الامر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول . ولعله يسمع في المرة الاخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالاسرار جديدة على اذنيه . فاذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرار دي نرفال أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام ... عظات جليلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لا تأخذه سِنة ولا نوم » ... فان كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الاول - أول من رتل الدعاء الى الصلاة - كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الاسلام لهذه الدعوة - بلال بن رباح - صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال فكان أسود أفريقياً من ابناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتخذ دين الاسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية ، وجمال النغم في ترجيع صوته - ذلك الصوت الذي تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن في الإسلام منذ اكثر من الف ومائتي عام .

وقد رجّح بلال أذانه قبل ان ترتسم في الذهن صورة المنارة الاولى ، وقبل ان يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة ان يرمق المؤذن بعينه منظراً محرماً وهو يطل من علٍ على سقوف المدينة .

واليوم ترتفع الى السماء منائر لا عداد لها في كل موطن من مواطن الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد جاهلة بميزان البناء فيحيل الى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمئذنة « أوجلة » التي رآها فكتور لارجو Largau في سنة ١٨٧٧ .

أما الكلمات التي يرددها المسلمون في انحاء عالم الإسلام من حيث تقوم بِنَى القرميد التي ترتفع على قبور الصحراء إلى تلك المنائر السحرية الحالمة التي ترتفع على مسجد « أجرا » عند ضريح « تاج محل » بالهند ـ فهي بنصها وفصها تلك الكلمات التي ترنم بها صوت بلال المكين .

ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان . فعليه ان يحفظ القرآن وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء ، وان يكون له صوت واضح جهير ولهجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة ،ولكن شروط الصوت الحسن التي كانت تطلب من المؤذن في صدر الدعوة المحمدية والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفي به بعد ذلك . وقد روى الشاعر الفارسي الأشهر مصلح الدين السعدي في كتابه بستان الورد غير نادرة واحدة تدل على آراء ابناء عصره فيما يرجع الى اختيار المؤذنين وقراء آي الذكر الحكيم .

قال في بعض تلك النوادر إن مؤذناً في سنجار تعوّد أن يؤدي الأذان أداء صحيحاً ولكن بصوت كريه إلى من سمعوه ، وكان صاحب المسجد اميراً عادلاً لا يسيء في عمل من اعماله . فلم يشأ ان يجرح فؤاد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه فقال له : يا سيدي . إن لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهما خمسة دنانير . فهل لك في عشرة دنانير تأخذها انت على ان تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟.. فقبل الرجل عرض الامير وغادر المدينة الى حيث شاءت له المقادير .

الا أنه لم يلبث غير قليل حتى قفل الى الامير قائلاً : لقد ظلمتني يا مولاي اذ قد زينت لي ان اترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير . فإنهم قد عرضوا عليّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن افارقهم فأبيتها .. فابتسم الامير وقال : لا يخدعوك اذن .. فإني لأحسبهم معطيك خمسين ديناراً او يزيد على ذلك اذا أصررت على البقاء هناك !

وفي الكتاب نادرة أخرى لا تقل عن هذه في طرافتها ، يزيدنا فهماً لها ان نذكر ان الاسلوب العربي المأثور في القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف في التلاوات الدينية. وخلاصة النادرة ان قارئاً من حفاظ الكتاب كان يجوّد الآيات بصوت غير جيد . فمر به رجل فطن وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لا شيء ! قال الرجل : وفيم

اذن عناؤك هذا ؟ قال : حباً بالله ! قال الرجل الفطن : حباً بالله اذن لا تقرأ يرحمك الله .

*

وبدأ بلال حياته عبداً لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف عن نشاته في الطفولة غير النزر اليسير . ومن وصف سير وليام موير اياه يظهر انه كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وانه كان طويلاً أجنا كانه الجمل ، لا يروق النظر ولكنه شديـد الأسر مفتول الجسد متين الاعصاب .

وقد كان لدعوة محمد الأولى أثر عميق في قلوب عبيد مكة ، لأن هؤلاء القوم الغرباء في ربقة العبودية بين أناس غير اهلهـم قد تلقوا ولا ريب دعوة النبي الى الأبوة العليا التي تكلأ الناس جميعاً كما يتلقـــى الجريح بلسم الشفاء والحزين سلوة العزاء .

ولعل بلالاً كان اول من دان بالاسلام من بني جلدته ، ولذاك قال النبي عنه انه اول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التي شاعت في الحبشة باسم الديانة المسيحية في القرن الرابـع فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام .

وما هو الا انـ بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشـده وأقساه على هؤلاء العبيد . فقد كانت سُنة العرب منذ عهد بعيد ان يحمي الرجل

ذوي قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة . فمن سفك دم عربي فهو غير آمن أن يرتد عليه أهله بالثار وان يستتبع ذلك حرباً سجالاً بين العشيرتين إلى زمن طويل . ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الامان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف . ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتعاورتهم الأيدي بالضرب وتلقوا نذر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ في شمس الجزيرة العربية السافعة . فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهي تحت هذا العذاب الذي يضاف اليه عذاب الجوع والظمأ أشد من أن تدفعها عزيمة اولئك المساكين ... فما زالوا واحداً بعد واحد يتفوهون بالعبارات التي كانت تملى عليهم سباً لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق ما يقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندماً على ما فرط منهم في تلك المحنة النكراء .

ولكن النبي استنزل لأولئك المساكين عزاء وافياً بما ذكره القرآن عنهم ، جاء فيه : « انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد ايمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظمأ ولا طول التعريض للشمس على بطاح

مكة الملتهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثني عزيمته الحديدية ، فلم يكن له من جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه الا ان يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيراً الى وحدانية الله الذي ليس له شريك .

هذه الفترة في حياة بلال أيام دخوله في الإسلام هي التي اختارها الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للاشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالاً قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصي من الخشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذي لا إله غيره ».

واتفق ذات يوم ـ والحبشي المسكين يتلظى من ألم ذاك العذاب ـ أن عبر به رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان ذاك الرجل النحيف هو التاجر عبدالله بن عثمان أبي قحافة ، ويعرف في التاريخ الاسلامي باسم أبي بكر صديق النبي الحميم وزميله في ذلك الكهف الذي تقول الرواية ان العناكب نسجت على مدخله خيوطها لتخفي اللاجئين اليه عمن يتعقبونهما ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أي المخلص الوفي ، وكان أبا السيدة عائشة التي قُدر لها ان تقترن بالنبي وقدر لأبيها ان يخلف النبي على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد انفق كثيراً من ثروته التي تبلغ اربعين الف درهم في شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدي سادتهم من أجل دخولهم في دين

الإسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل او نساء، فكان ابو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله في إعتاق النساء والصعفاء ويقول له : هلا أنفقته في إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرأون عنك عدوك ؟ وكان ابو بكر يجيبه : كلا يا أبت . إنما أريد بهم وجه الله .

ويقول الرواة ان هذا البذل السخي في سبيل التقوى قد أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشنة من شعر المعز الذي يلفق بالسلا .

فلما شهد بلالاً في ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتلك الحال وأخذ لتوه يساوم أمية بن خلف وأبي بن خلف في ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير .

وقليلا ما كان يخطر على بال احد من شهود تلك الصفقة ، ان يوماً من الايام سياتي على أمية وابنه يسالان فيه الرحمة من عبدهما الذي ضنّا عليه بكل رحمة فلا ينالانها . فما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت له فرصته بعد وقعة بدر الحامية ، فوقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشفى قلبه ان ينظر اليهما وهما يذبحان على مشهد منه ، لأن الاسلام لا يامر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير .

وقد كان بلال في الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوجه الله .

وكان بلال رجلاً قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهزال في قصيدة الشاعر الفارسي إلا على معنى الهزال الذي توصف به الطبيعة البشرية بالقياس الى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية ان قال قولته في السبب الذي بعث أبا بكر الى شراء الحبشي المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخ التقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسري مسراها في البيئة التي عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصريف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر ما يلغطون به ويوسع القائلين به تأنيباً وملامة ، وفي ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله إذا تردى، إن علينا للهدى، وان لنا للآخرة والأولى، . فأنذرتكم ناراً تلظى، لا يصلاها إلا الأشقي ، الذي كذب وتولى ، وسيُجنّبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » .

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له ان يساهم بنصيب في نشر دعوة الاسلام .

وتزعم بعض الروايات ان بلالاً عاد بعد هجرة النبي فوقع في أسر

قريش فعذبوه وضاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها في رأي المراجع التي تعتبر حجة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وإنما نلتقي ببلال مرة أخرى بعد عتقه في المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان .

*

ولم يكن الأذان معروفاً في مستهل الدعوة الاسلامية حين كان المؤمنون فئة قليلة تقيم الى جوار نبيها ، وانما كان الأذان صيحة مسموعة ينادي بها المنادي الى الصلاة الجامعة .

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة وكعبتها . إلا ان بيت المقدس لم يزل له شأن في المأثورات الاسلامية ولم يزل عزيزاً في قلوب المسلمين .

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى ان عيسى ابن مريم سيقبل عند حلول الساعة الى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبهت اولئك الذين يزعمون أنهم من اتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟.

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب ، وفحواه ان النبي حين فرغ من بناء مسجده ـ الذي يعد على زهادة بنيانه

مثالاً للأسلوب العربي في البناء ـ تبين على الأثر ان دعـــوة المسلمين الى الصلاة على النحو الذي اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال المسلمين في ذلك الحين ! لأنها خلو من ذلك الجلال الذي لا غنى عنه في إقامـــة الفرائض العامة والشعائر العلنية .

وخطر للنبي في بداءة الامر أن يتخذ بوقاً للدعوة الى الصـــلاة ، ولكنه لم يشـــأ ان يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان يستخدمها اليهود في بعض الصلوات .

ثم خطر له ان يتخذ للدعوة ناقوساً يدَق في ساعات معلومـــات ، ولكنهم لم يجدوا في المدينة من يصنع الناقوس المطلوب .

وإنه ليوشك أن يتخذ للدعوة ناقوراً من الخشب إذ سنحت فـكرة الأذان لبعض الصالحين في رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم أنه لقي على مقربـة من داره ـ وهو يسري في ضوء القمراء ـ رجلاً طوالاً في ثياب خضر بيـده ناقوس جميل، وبدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه الناقوس. فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأي شيء تريده ؟ فقال له : إنما أشتريه للنبي عليه السلام ليدعو به المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطوال . وكأنه يزداد في مقاله طولاً : كلا . بل أخبرك بما هو أصلح واجدى. فخير من ذاك ان ينادي مناد بالدعاء الى الصلاة من

سقف المسجد كما أصنع . وانطلق في ندائه بصوت رنان عجيب سماوي الجلال يبعث الوجل الأقدس في فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك الأذان كما يردد اليوم من شاطىء إفريقية العربي إلى تخوم هندستان .

الله أكبر ..
الله أكبر ..
أشهد أن لا إله إلا الله ..
أشهد أن محمداً رسول الله ..
حي على الصلاة ..
حي على الفلاح ..
لا إله إلا الله .

فهب من رقاده والنغم العجيب يتردد في أذنيه ، وبادر الى النبي فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبي كما يسمع الرؤيا الصادقة التي تأتي بالهداية من الله ، وتذكّر تلك الهبة الصوتية النادرة التي خص بها مولاه الوفي بلال ، فأمره أن ينادي الى الصلاة بتلك الكلمات التي سمعها المسلم الصالح في منامه ، وكان الليل في هزيعه الاخير فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وما هو إلا ان طلعت بشائر النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشي الساحر يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد . فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التي تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة في المدن الاسلامية ، وكان

مصعد بلال في تلك الليلة إلى الشرفة المضاءة بنور الكواكب على سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل الف ومائتي عام.

•

في خلال تلك القرون جميعاً لم يعرف الاسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان الى الله ·

ولا تزال نغمات الأذان تعلّم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لا عداد لها : وفي المأثورات انها ستكون علامة للساعة التي تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدي المنتظر ــ مسيح الديانة الاسلامية ــ فيعلن الأذان بصوت جهوري يدوّي في انحاء العالم بأسره !

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب في العالم الاسلامي بدقة يدهش لها السياح ويعجبون ·

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين في استجابة داعي الصلاة حتى استخدمت احياناً في الاضرار بهم والاغارة عليهم · فاتفق في نيسابور ــ تلك المدينة المحبة إلى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار ــ أن الأذان أعلن لأول مرة غدراً وختلاً للإيقاع بمن يستجيبون اليه · إذ حدث في السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيز خان ، وكان من عادة هذه الجموع التي درجت على الاستئصال

والتخريب عادة فريدة بين الأمر في قسوتها وغدرها ، وهي ان يعودوا الى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع اليها من أهلها مطمئناً الى جلاء العدو عنها أو فيمن يقبلون على الانقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الاعلاق منها • فلما عادوا الى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولي باقامة الأذان فاقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالمخابىء والزوايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسي حين قال في وصف هذه الجموع : « إنهم يقصدون إلى إبادة نوع الانسان وفناء العالم ولا يقصدون الى السيادة أو الغنيمة » •

●

إن جو المأثورات - بما يحفه من الأشعة والهالات - ليرن فيه صوت بلال أبداً كما رن في الحلم صوت ذلك الغريب في الأكسية الخضر منبعثاً من عالم فردوسي إلهي مسربل بالضياء .

وليس في مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة المؤذن الافريقي ولا ان نقوم مزاياه الموسيقية التي لا شك فيها ، ولكننا، إذا صح لنا ان نستدل بما قيل في وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة خلافاً للنغمة العربية التي تعرف بشيء من الحدة والنعومة .

ولا يعوزنا السبب لأن نشك في ان احداً من المشهورين بين أرباب

صناعة الغناء في الجاهلية كان من ذلك العنصر ـ العربي ـ الذي وصفه سائح فرنسي فقال : إنه شعب صخاب، وقد أنبانا الدكتور بيرون Perron في كتابه الممتع عن النساء العربيات الذي نشر بالجزائر سنة ١٨٤٨ أن معظمهم كانوا عبيداً وان جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الاجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتي عاد ـ ولا يزال لأغانيهما بقية مروية ـ فتاتين حبشيتين .

وتقول الاخبار إنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وأن فترات التاريخ العربي لم تخل من عتقاء او خلاسيين نبغوا في الشعر أو في الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذي نظم إحدى المعلقات ورويت له أغان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعني به عنترة ابن شداد .

ومنهم خفاف الشاعر الفارسي ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذي لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة ثاراً لحميه الذي قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجاً من غير أكفائها وأقسم لا يهدأن أو يقتل منهم مائة بقتيله · فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح في قدمه وفسد جرحه فمات · فقيل ان الشنفرى بر بقسمه وهو قتيل ·

ويروى عن النبي أنه ود لو شهد عنترة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الشاعر لدعوته ، إذ يجنح

إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحت لواء نبي يبشر بالمساواة .

وطوت روح الإسلام شيئاً فشيئاً قصيدالصحراء الجميل بألوانه الساخنة التي تشبه ألوانها ، وحرارته التي تشبه حرارة رمالها ووقدته التي تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تغني وان كفت عن نظم المعلقات ! ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسيين الذين نبغوا في القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الاسلام ، فسعيد ابن مذحج الذي صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وضيعوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الزنجي قد لقي الحظوة من أمراء كثيرين وحكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى ايام هشام . وقد حشا يزيد الثاني فاه دراً في يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد ـ أمير الغناء في عصره ـ أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وغشي على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلفه إثني عشر الف دينار جائزة واحدة ، ومشى في جنازته الوليد الثاني هو وأخوه في ثياب السواد حداداً عليه وقد مات في قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء ـ التي بلغ ثمن القبلة منها أربعين الف درهم ـ كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبّابة صاحبتها من جواري المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على ان أصوات الجواري السود وأساليبهن في الغناء كان لها سحر ملحوظ في نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس في بعض الاحيان • وقد قيل إن اسماعيل بن جامع أعظم المغنين في عصر الإسلام الذهبي أعطى جارية سوداء اربعة دراهم لينقل عنها نغماً غريباً سمعها تترنم به وهي تحمل الجرة على رأسها • ثم وضع في ذلك النغم دوراً سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال انه لم يسمع مثله قط في جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومنزل نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدي ـ الشاعر الفارسي ـ أنباء اخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم في هذا الفن إلى ما بعد صدر الإسلام ، ومن تلك الانباء قصة رواها في كتابه « بستان الورد » من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت الى الحجاز في رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترنمون في الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجهل حالهم ولا يعرف نجواهم ، فلما بلغنا نخل بني هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت الى جمل صاحبنا التقي قد أخذه الصوت الساحر فالقى براكبه الى الارض وهام في الصحراء ،

فصحت بالرجل : يا هذا ! إن صوت هذا الفتى قد عمل في الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك » .

وذاك انه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الابل إلى المسير والصبر على السفر بالحان الحداء ، وقد روى جنتيوس Gentius معقباً على هذه الواقعة في ترجمته لبستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخـــرى أعجب من الأولى فقال : « إن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل في الصحراء ضاعت منه جميع إبله ، فجاءه عبد زنجي وساله ان يتشفع له عند مولاه في ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يـــده اليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه . فقال له صاحب الدار : إن هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده إلى اسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتاً جميلاً فأقمته حادياً لأبلي فاجهدها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعـــة وضعت عنها أحمالها لفرط ما نالها من الإعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » .

ومن النوادر التي تروى في هذا المعنى وتدل على شان الحداة في المشرق ـ نادرة حكاها جلال الدين في تاريخه حيث قال : إن المنصور أجاز سالماً الحادي بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك ان يسقط عن جمله ، فقال سالم : لقد حدوت لهشام فأجازني بعشرة آلاف ! » .

فمما لا شك فيه أن المغنين في الجاهلية وفي الصدر الأول من الإسلام

كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين، وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوي الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم في الصناعات الموسيقية ، فلا داعي للشك في ملكة الغناء عند بلال ولا في قيام المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح .. ويبقى ان ننظر هل هو الذي أبدع لحن الأذان الذي مضى عليه المؤذنون من بعده أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحي اليه .

وعلينا ان نذكر « أولاً » أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوفي إلا في الفرط النادر، وغاية ما بلغوه في هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والترديد على هوى المغني أو على هوى السامعين . فتعاد الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه حتى ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات .

ولا تزال هذه النزعة في الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون Perron حين سال : أي سائح في مصر لم يسمع كلمة يا ليل تعاد مرة بعد مرة نصف ساعة او تزيد ؟

والأغلب ان الانغام العربية لم تكن لتزيد في عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهي ما يسمى بالنغم البسيط ويغنّى به في مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء •

وما يسمى بالنغم المركب وهو يتالف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة، وما يسمى بالخفيف وهو الذي يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار •

ولما كان بلال عبداً وكان لا ريب في بعض أوقاته يسوق الإبل فقد كان على الارجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط ، ولكنه ـ بسليقته الافريقية التي طبع عليها أبناء جلدته ـ ربما وجد من وقته متسعاً لترديد الاصوات المركبة واستطاع من ثم أن يلقي الأذان في ألحانه المعروفة •

فلا يخفى أن النغم الذي يسمع في المنام قلما يثبت في الذاكرة ، وأن النغم الذي سمعه المسلم الصالح من الطيف الغريب صاحب الثياب الخضر يصعب أن يعلق بذاكرته ويجري على لسانه وهو يقص رؤيته على النبي (صلوات الله عليه) •

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الاذان وصاغ منه اللحن الذي أوحته اليه سليقته الافريقية الآبدة فاقره النبي عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم» •

ولا جرم يقره محمد على أسلوب ترتيله وهو الذي كان يقربه اليه ويساله الرأي في مهمات الامور . وقد كان يؤثره على غيره من المؤذنين ، فلم يكن يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال قادر على الدعاء اليها •

ولزم بلال النبي عن كثب طوال حياته . فكان يوقظ النبي بعد الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى . فإذا اجتمع المصلون بالمسجد إتجهت الأنظار نحو الافريقي الواقف بالصف الأول ليتلوه في حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف في الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الاسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت اليه أمور أهم وأكبر من الأذان . فكان خازن بيت النبي وأمينه على المال الذي يصل إلى يديه ، وتلقى من النبي مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة في موكبه الظافر وكان هو الذي أقام الأذان على أعلى مكان في تلك البنية التي اشتهرت الآن في انحاء الكرة الأرضية . وكان هو الداعي إلى الصلاة يوم حضر الى المدينة ملوك حضرموت للدخول في الاسلام ، وكان هو الذي يدعو الى الصلاة حين يحتشد فرسان الاسلام بالصحراء لقتال عابدي الأوثان .

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بغض شديد لأعداء وليه والمحسن اليه لا حاجة بنا في هذا المقام الى تفصيلها ، وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبي يوم ذهب معه في حجة الوداع فظل يحرص على راحته طوال الطريق ويمشي الى جانبه مظللاً إياه بستار في يده يحميه وهج الظهيرة ، ولعله في تلك الرحلة قد عبر في الوادي المقدس تلك الاماكن التي كان سادات قريش يعذبونه هو في حر شمسها .

ثم توفي محمد « عليه السلام » فسكت الصوت العجيب ودعي مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين الى الصلاة . لأن بلالاً عاهد نفسه ألا يوءذن لأمام بعد نبيه ووليه .

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال في صحبة أبي بكر بالمدينة ، ولكنه ولا ريب كان في موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين، وكان له من جلالة القدر في أنظارهم ما خوله ان يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهي رعاية عظمى بين قوم لا يزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار أي الخلص من النسب الخليط .

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالاً قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الاول . فلما أراد الخليفة العادل الصارم في عدله ـ عمر بن الخطاب ـ أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذي نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لا نسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل ، حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم انه كان يصحب الجيش وأنه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال .

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبي في رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه في معارك الاسلام

الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذي تقدمه في المعيشـــة ، فزالت أو كادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التي درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الأسيوي لم تكن معهودة فيما مضى، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر اليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفي خلال ذلك كانت العقيدة التي تعذب بلال من أجلها ودان بها زمناً وهي لا تتجاوز حي أبي طالب – قد جاوزت البرور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس وشهدها قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذي لا ينام وهي تسلك سبيلها إلى القارة الافريقية فتضمها إلى فتوح الاسلام . وبهذا أصبحت دعوته الاولى – دعوة الأذان – مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم الهند إلى شواطىء الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء العربية أبواب كابل ••• ولعل ولداً من ذرية بـــلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الارض مسيرة مائتي يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما بلغته الفتوح االاسلامية – حتى في الثانية عشرة للهجرة – لخليق أن يستجيش في صدر الشيخ الهرم حمية الدين التي عمر بها ما بين جانحيه .

•

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى في حسبانه التقي أن الصوت الذي أسمع نبي الله ودعاه إلى بيت الصلاة لا

ينبغي ان يسمع بعد فراق مولاه · ولنا ان نتخيله في ماواه بالشام وأنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذيأعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وانه ليضطر مراراً إلى الاباء والاعتـــذار لأولئك الذين كانوا يجلّونه إجلال القديسين وبودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه ·

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل اليه رؤساء القوم ان يسأل بلالاً إقامة الأذان تكريماً لمحضر أمير المؤمنين، فرضي بلال وكان أذانه الأخير.

●

لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد في تلك الأيام غيرةً يوشـــك الا تعرف الحدود ، ومن المحقق ان النبأ الذي سرى بينهم مبشراً باستماعهم الى أذان بلال قد أذكى في نفوس أهل المدينة الوردية الشذى حميةً مفرحة لا نظن ان العالم المسيحي قد شهد لها مثيلاً في غير أيام الصليبيين ·

فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المـؤذن النبوي لاح للأكثرين ولا شك ان الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تـكاد أن تضارع الظفر بسماع صوت النبي عليه السلام ··· وأنهـــا أفخر أحدوثة في الحيـــاة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والأحفاد · وقد يكون في المدينة من تلقى النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراف ، ولكن الأكثرين الذين تزاحموا في صمت وخشوع واجفي القلوب مرهفي

الآذان لسماع « التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من ان يلم به النسيان . وتزكي روايات العيان هذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار في تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة الصوت الجهوري تشق حجاب السكون وتتعاقب من حنجرة الشيخ الافريقي بتلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمر ومن معه وتحدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع لزفراتهم نشيج عال غطى في المسجد على دعاء الأذان الاخير .

أي فنان موسيقي أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بلال في ذلك الأذان ، وأن يسمع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟!

ولا حاجة بنا الى أن نقول إنها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوطة أو تدوين الأنغام لم يكن معروفاً يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل الى جيل غير تعليق الذاكرة ، فليس في وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقي أو بما تبدل من تلحين بلال للأدان . ولكننا نرجع الى الظن وقد يغني في هذا الباب . ولدينا من الأسباب ما يكفي لترجيح بقاء الأصوات نيفاً والف سنة محفوظة في الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضاً من العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان ، وليست غيرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيرة العبريين ، فلا جرم تسنح لأنغام الأذان فرصة للبقاء في الذاكرة كالفرصة التي سنحت لأناشيد إسرائيل .

فمن الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأقل نغمات مشابهة للنغمات التي ابتدأ بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل .

ولعل مصر التي فتحت وبلال بقيد الحياة ـ مصر بلد الخلود الذي لا يقبل التبديل ـ قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل في العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية . وقد سمعت الأذان من مؤذنين سمعوه من بلال .

ويرضينا ان نعتقد أن بلالاً نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع في مصر الحديثة كما سجله فيلوتو Villoteau وهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم الى أجزاء واجزاء مما يقع موقع الغرابة في تأثيره على مسامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذي سمعه فيلوتو أقرب الى التفنن من المؤذن الذي سجل لين Laue نغماته في كتابه عن المصريين المحدثين فاذا بها تنتهي وفي السمع انتظار لبقية تالية ... ولعلنا نؤثر ان يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الاذان لما فيه من تجزئة النغم التي يألفها العرب وتشبه تلك الخفايا المستغربة في الاصداء الإفريقية . إلا ان النغم الآخر مع هـذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحي إلى معنى العبادة الخالدة التي لا نهاية لها والتي هي أبداً في ابتداء بغير ختام ، كما يوحي إلى صلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هي آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التي مرت بنا ـ مترجمـــة من الانجليزية عن الكاتب الألمعي لفكاديوهيرن ـ يتبين للقارىء منزعه الأدبي في الكتابة والتصوير. وهو على الأغلب منزع الخيـال والمجاز والعطف على الحيـاة الشرقية التي تمتزج بتواريخ الروحيات والدينيات على الإجمال ، وهو مـع تحقيقه في مراجعة المصادر التي اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لا يعيبها سوء النية الذي تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين ، وإنما يوقعه في الخطأ حب المجاز أو الاسترسال في صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغني هذا المقال الممتع الذي حيى به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصحح فيه من مقاله ما يحتاج الى التصحيح أو الاستدراك .

فمن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضي الله عنه وليس له عقب كما ورد في ابن هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات في كل ما قرأناه عنه .

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخاً لبلال من

أبويه أو من احدهما وهو على ارجح الأقوال أخوه في الاسلام على سنة المؤاخاة التي كان النبي (صلوات الله عليه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين .

إلا أن هفوته الظاهرة هي مذهبه في تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالي في بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد الأصلاء فإنه يجنح في كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص في الأداة الصوتية ، أو في القدرة الفنية عند العربي الاصيل ، وان الموالي والجواري من السود والاحباش سلموا من هذا النقص فكثر اشتغالهم بفن الغناء في الحجاز ثم في غيره من الاقطار الاسلامية .

وظاهر ان هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم في حديثهم وندائهم كما سُمعوا قبل الاسلام فلا نجدهم قاصرين في الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في جهارة الصوت وقوته إلى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم في بداوتهم أنها صناعة أنثوية لا تليق بالفارس المقدام ولا بالرجل الكريم ، وأن المنادمة والتسلية بجمال المسمع أو جمال المنظر أدنى إلى عمل النساء منها الى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم ان يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتي الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان تسيير القوافل بالتجارة ضرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى ما بعد أيام الدولة الاسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالي والجواري أو على المخنثين الذين يتشبهون بالنساء في المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه ، وعنهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها في أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل إرسال الشعر وطلاء الوجه شائعاً بينهم الى زمن قريب ، بعد ان نقلوه من الاندلس ونقله الاندلسيون عن أهل الصناعة في مدن الحجاز .

فكثرة المغنين بين الموالي والجواري إنما ترجع الى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية في العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لا ينكرونها وهي الحداء والنصيب وما اليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت الانساني في العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم في البادية مع القمراء فكانت اصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهي في الغناء أعسر مكان على امتلاء .

وصوت بلال رضي الله عنه لم يطلب مع هذا للآذان لأنه عرف قبل هذا في أفانين الغناء ، ولعله رعى الإبل وحداها في بوادي الحجاز أو في الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الاسلام أو بعد الاسلام ، فإنما عرفت جهارة صوته في الحرب والسلم وحداء الطريق فاختاره النبي عليه السلام للأذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار .

